



البطل
والممثل
والرجل

دكتور فطحي لوقا

مكتبة غريب

عمر بن الخطاب

البطل والمثل والرجل

بقلم

المفكر المسيحي

الدكتور نظمي لوقا

الناشر

مكتبة غريب

٢٠١ شارع كامل صديق (المنامة)

تليفون ٩٠٢١٠٧

اهداء

إلى السائرين في الظلمة

ومن يلوح لهم - من أنفسهم -

فجر جديد

وأبضا إلى

ضحايا التعصب الجاهل الأرعن ،

على اختلاف عقائدهم . . .

نظمى لوقا

من رقيق الأرض

التمردين على الأغلال

لماذا

يكتب مفكر مسيحي

عن الإسلام وأقطابه ؟

في مطلع كتابي « محمد الرسالة والرسول » كتبت هذه العبارة :

« من يغلق عينيه دون النور ، يضر عينيه ولا يضر النور » .

وهي حقيقة مستمدة من تجربة العقل الانساني ، ايا كان لون هذا الانسان أو جنسه أو ديانته . فبما من تدين صحيح يمل على هذا المتدين أن يغلق عينيه ، أو أن يفتحها حين يجد ما يوافقه ، ويغضها حتى لا يرى مالا يوافقه . أو أن يضع على عقله حجابا يعطل نفاذه ، أو أن يجعل على ذمته « رقبيا » يلتوى بها كي لا يقول الصدق بغير جمجمة ولا لعنمة ، أو يكتمه إيثارا للهوى وإهدارا للأمانة .

والاسلام بكل تراثه مصدر له وزنه للحضارة الانسانية ، وموضوع للدرس والاعتبار ، لا يخص المسلمين دون سواهم . بل إنه - بما هو موضوع للمعرفة العقلية الفاحصة الأمانة - منهل مبذول لكل ذى عقل وبصيرة ، ولا يشترط في هذا العاقل البصير طالب المعرفة أن يكون مسلما . فالإسلام عقيدة إيمانية لها خصوصيتها . أما العقل فلا خصوصية له إلا معايير النزاهة التي لا تعرف المجاملة ، ولا التحامل .

وأضرب مثلا حسيا مجسما لتقريب المسألة إلى ذهن من عساه يحتاج إلى هذا التقريب : جسمي ملكي ويخصني في المقام الأول بما هو جسم . بمعنى أنه لا يمكن أن يستخدمه أو يعيش به وبوظائفه الحيوية أحد سوى ، مهما كانت درجة قرابته مني . أما حين يتعلق الأمر بمعرفة وظائف

هذا الجسم ، فهذه المعرفة لا شأن لأحد بها إلا لمن يملك أسبابها ووسائلها ومنهجها . وقد لا أملك أنا شيئا منها ، فأكون أجهل الناس بجسمى الذى أعيش به ، ويكون أدرى منى به الطبيب والعالم والدارس ، حتى ولو لم تربطنى به صلة قرابة ، أو جنس ، أو لغة ، أو ديانة !

وكل ما يشترط فى هذا الطبيب أن يكون نزيها مخلصا باذلا أقصى ما يملكه من معرفة وفهم . وغيب ولا مراء من يحكم على طبيى بأنه قريى أو نسيى أو تربطه بى عاطفة أو آصرة من الأواصر ، لأنه يرى إخلاصه فى فحص جسمى ودراسة خواصه .

ومصدر خلط الناس فى أمر مثلى ، ممن يدرس تراث ديانة غير ديانتته أن الأمر يلتبس عليهم فى مفهوم الديانة ، فالديانة عند هؤلاء المتعجلين فى الحكم عقيدة قوامها الانتماء الإيائى ولا شىء آخر . ويغيب عنهم أن لها مفهومًا آخر - إلى جانب مفهوم العقيدة الإيائية - وهو أنها « موضوع » يصلح للدراسة المعرفية . وليس هناك ما يوجب إطلاقا أن يكون الدارس لهذه العقيدة متميا إليها مؤمنا بها ، لأن الدراسة شىء غير الانتماء الإيائى . الدراسة نشاط معرفى . لا علاقة له أصلا بالانتماء الإيائى .

وهنا لابد لنا من كلمة موجزة عن النشاط المعرفى ، لننبه إلى أنه عملية عقلية موضوعية أول شروط سلامتها النزاهة التى تنجرد من شتى العواطف ، فهى لا تتحيز أو تحابى ، ولا تتحامل أو تفتات . وإنما هو ميزان العقل المنصف الذى يقوم بالصدق والقسط .

ونضرب مثلا للتفريق بين العاطفة أو الهوى - سواء بالميل أو النفور - وبين العقل النزيه الذى لا يعرف سوى الصدق ومبادئ الحكم المنطقى والمعرفة المحايدة . لنفرض أن باحثا مهمته تحليل الدم ، أو التصوير بالأشعة . فلعمله - كى يكون صحيحا - غاية واحدة هى تقديم الصورة الآمنة التى لا تخفى شيئا ، ولا تغير شيئا من الواقع . فلا تحمله العاطفة

أن يخفى ما يسوء الشخص الذي يحبه ، أو يضيف ما يسوء الشخص الذي
ييفضه .

وعين الرضا عن كل عيب كليله
ولكن عين السخط تبدى المساويا

ولا يقال مثل هذا البيت على سبيل الإقرار والتحبيذ لهذين النوعين من
الاعين ، بل على سبيل التنديد بهما ، وأنها ليسا العين الصحيحة التي
ينبغي أن يكون النظر الصحيح بها وحدها ، لأنها تتجاهل مشاعر الرضا
والسخط ، ولا تعرف إلا الصدق والأمانة للحقيقة في تقييم الواقع والحكاية
عنه .

ولعل سائلا يسأل :

- هل الرضا والسخط إذن محرمان تحريما كليا مطلقا على الدارس أو
الباحث الموضوعي ، وعلى الفيلسوف من باب أولى ؟ أليس هذا خليقا أن
يجعله إنسانا ناقص الإنسانية ، لأنه فكر كله ، بغير مشاعر كالتى يتحمس
لها الناس أو يسخطون بسببها ؟ ألا يجب الفاحص الموضوعي ولا يكره
ولا تمثلى جوانحه بالإعجاب أو تنقزز نفسه من الأمور التى ينفر منها الناس
ويضيقون بها ؟ ألا يعرف فرقا بين الحسن والقبيح ، فلا تهش نفسه لشيء
ولا تنقبض عن شيء ؟ أهذا الوضع - إن صح أنه ممكن إطلاقا لأى أحد
من البشر - يضيف عليه مزية تؤهله لصدق النظر وصواب الحكم على الأمور
وعلى الناس ، أم هو - على الأصح - علامة نقص فيه تنقض هذه الأهلية ؟
وهل « المعرفة » الصادقة نقىض حقا للرضا والسخط بحيث أنها لا يجتمعان
لشخص واحد إلا فسدت قدرته المعرفية ؟ والجواب عن هذا كله يجلو كل
هذه الحيرة إذا ما راعينا الفارق بين الوسيلة والغاية . أو بين المنهج والحقيقة
المعرفية التى نصل إليها بهذا المنهج . فالباحث المعرفى عليه قطعا أن يحرم
على نفسه كل مشاعر الميل أو التحامل وهو فى مرحلة البحث المعرفى .

فالرضا والسخط قبل تمام المعرفة حرام لا باعتبار ذاتهما ، بل هما محرمان على الباحث في هذه المرحلة فحسب ، لأنها يؤثران على بحثه ويقضيان على نزاهته واستقامته وحيدته ، وهى صفات يجب أن تتوفر بصورة مطلقة للمنهج المعرفى . فالمعرفة الصحيحة لابد أن تكون ثمرة زواج شرعى بين التجرد النزيه وبين البحث اليقظ فى واقع ما بالعقل وجده . فإذا تدخلت الأهواء والانفعالات والأحكام المسبقة فى هذه العملية كانت أشبه بدخول الزنا على الزواج الشرعى ، دخولا يفسد كينونته ، ويفسد ثمرة ، فتأتى المعرفة عندئذ « بنت سفاح » لا تصح نسبتها إلى الأب الشرعى وهو العقل ، وإن نسبت إليه زورا وبهتانا ، وأدخلت فى روع الناس ما يخالف الحق والواقع !

ولكن هذا « التحريم » المرحلى أو « المنهجى » للرضا والسخط ، يزول تماما متى وصل الباحث الموضوعى إلى المعرفة الصحيحة التى هى ثمرة شرعية للبحث العقلى الذى لم تدخل على عملياته الأمانة « خيانة » من فعل الأهواء - التى من قبيل الرضا والسخط - فعند تمام المعرفة الصحيحة النزيه يسترد الباحث حقه كاملا فى الرضا والسخط بناء على ما تحقق له من المعرفة النزيه ، فيرضى أو يسخط لا عن هوى أعمى . بل عن معرفة وتبصر .

وما أعظم الفرق بين الحالين ! فالرضا والسخط عن هوى أعمى ، أى قبل المعرفة ، يتسلطان على العقل ويزيفان ثمرة الطيبة . أما الرضا والسخط بعد معرفة وتبصر فالعقل هو الذى يتسلط عليهما ويمدهما بالشرعية الكاملة . فهنا إذن فى البداية أب فاسد للرأى ولكنها فى النهاية ثمرة قريمة للعقل . وشتان هذه وذاك !

شتان هما ، لأن الرضا والسخط قبل أعمال العقل ، وفى أثناء أعماله ، هوى أعمى ضال مضلل . أما الرضا والسخط بعد الفراغ النزيه المتجرد من تحصيل المعرفة أو الوصول إلى رأى فيها فليس هوى ، بل هو حكم أخلاقى أو تقييم مبنى على حكم معرفى أو « علم » .

فمن رضى أو سخط ثم حكم فقد جار وظلم . وصار بضلاله فى عداد الحمقى . أما من عرف وعلم ، ثم رضى أو سخط ، فهو على هدى من أمره ، وهو بهذا فى عداد الحكماء ، الذين يغضبون للحق ويسرون به ويغارون عليه .

وما بنى على حق فهو حق ، وما بنى على باطل فهو باطل .

ومامن ادعاء للتدين يسوغ لصاحبه أن يحكم حكما معرفيا مبنا من أساسه على الرضا أو السخط على أى عقيدة أو تراث يخالف عقيدته أو تراثه الذى وجده نفسه ينتمى إليه . لأن هذا الحكم يأتى - كما بينا - بمثابة « ابن سفاح » فهو نتيجة « زنا معرفى » ، تلتوى به الأهواء التى تتدخل فى العلاقة التى ينبغى أن تكون خالصة تمام الخلوص بين العقل المحايد والموضوع الذى يريد أن يصل إلى معرفته معرفة لا زيف فيها ولا زيف . . .

أجل ، مامن ادعاء للتدين يسوغ هذا التعصب الجاهل الأرعن أو يدعو إليه ويجذبه ، لأن التدين يعلم أول ما يعلمه الأمانة والصدق . والهووى المفسد للمعرفة الصحيحة نقيض الأمانة والصدق .

فخليق بالتدين أن يعرف أن انسياقه مع الهوى فى أحكامه على العقائد الأخرى ليس إخلاصا لديانته ، بل هو خيانة لروحها ، ولباب تعاليمها . فأى خير يبقى لديانة لا تنهى عن الجور فى الرأى والافتئات فى الحكم ، سواء أكان من يطلق عليهم أحكامه مخالفين له أو أنصارا . . . ؟

خائن مسمى ، لديانته من ينصرها بغير الحق والعدل ، قبل أن يكون مسيئا للديانات المخالفة ومن ينتسبون إليها .

وقديما قيل إن الأحق عدو نفسه ، وقيل - بحق - إن العدو العاقل خير من الصديق الجاهل . والجهل هنا ليس بمعنى عدم المعرفة فحسب ، بل بمعنى الحمق وعدم التبين والتبصر عند تكوين الرأى واتخاذ القرار .

فإذا وعينا هذه الأمور جيدا ، سهل علينا أن نجيب عن ذلك التساؤل الذى جعلناه عنوانا لهذا الفصل ، وهو :

- لماذا يكتب مفكر مسيحى عن تراث الاسلام وأقطابه ؟

والسبب الأول أنه يفكر ، والمفكر - علما كان أو فيلسوفا - من حقه قطعاً أن يعمل عقله وقدراته المعرفية فى كل ما له شأن وأهمية من الأمور . وتراث الاسلام وأقطابه ركائز لها أهميتها وأثرها الكبير فى أمور العالم وتطور تاريخه ، ولا سيما فى المنطقة العربية . فإذا كان هذا المفكر عربياً صار نظره فى هذه الأمور الخطيرة واجبا لا حقا جائزا مباحا فحسب . . .

والدافع الذى يلى ذلك أنه مسيحى . والمسيحية تأمر بالمحبة للعدو والصديق على السواء . وأول مراتب المحبة هى « التطوع » بالانصاف وإيفاء العقيدة المخالفة حقها غير منقوص من التقدير والتقييم فبذلك يكون هذا المفكر المنصف مخلصا لمسيحيته وروحها المتميزة بالسماحة والحب ، مثلما هو مخلص فى الوقت نفسه لمهمته المعرفية ومنهجها العقلى التزيه المتجرد من الأهواء العمياء ، من رضا أو سخط متى قاما على غير أساس صحيح من الاحاطة التزيه بالموضوع .

فإذا كان هذا المفكر المصحى عربيا ، فالداعى لهذه البحوث فى الإسلام بترائه وأقطابه أوجب ، لأنه عندئذ يعرف عشاءه ومواطنيه وقومه المعرفة التى ترضى العقل ، وترضى سماحة المسيحية ، وترضى الواجب القومى والوطنى على السواء .

وغير خاف أن تراث الاسلام حافل بما يعنى الانسان ، فليس من الخير للبشرية أن تحجب عنها هذه الكنوز من « الخبرات » و « التجارب » و « القيم » و « السلوكيات » . وما أحرى هذا أن يشغل اهتمام كاتب تعنيه هذه الجوانب ، ويعنيه كل شعاع مضى ينبثق منها لينير للبشر - بما هم بشر

أيا كانت عقائدهم وقومياتهم - طريقهم في حياتهم لمعاصرة ، التي تعقدت ونشعت فيها أسالك ، وأسهمت فيها المعايير

ولست أفهم كيف تستطيع أن تعيش أمة كالأمة العربية كما ينبغي أن تعيش ما لم تعرف كل طوائفها - سواء من الأعلى أو من الأفدبت - حقيقة تراثها القومي الذي هو ملث للشرية كافة ، وهو من دب أولى قسط مشترك بين كافة طوائف الأمة العربية أولا

ولست أعقل أن يحهل أى قسم من أقسام هذه القومية العربية ما لدى القسم الآخر من فكر وفهم وقيم . . فلا عنى عن المعرفة الربية بالحاسب الآخر وقيمه وتراثه .

ولش كان من عمل « الدعاة » و « الوعاظ » أن ينشروا معرفة التراث بين المستمين إليه ، لمحو أميتهم المعرفية والفكرية نراث دباتهم . فليست هذه مهمة المفكر العلمائى ، الذى ليس داعية ولا واعطا لنى ملته . بل الأولى به أن يكون قدوة ومثلا لنى ملته فى التعرف على نراث الملة الاخرى بكل الموضوعية والتجرد من التحامل ، ليقدم هم « نقائس » نراث هذه الأمة ، لنى تنفع معرفتها أساء ملته ، وأساء المل الاخرى عن السواء . لأن مهجه عصى نفسى موضوعى والناس - فى مته وفى غيرها سواسية فى العقل والنفس والموضوعية متى الرموها وارتقوا اليها ، مثلها هم سواسية فى اهواء الذى تنفسوه وناء الذى لا حية هم بدوه

ثم فليعلم من لم يعلم بعد أو لم يفهم أسى قد أكتب فى أمور تنصل بالدين عن قرب أو عن بعد ، ولكى لست كاتباً دينياً ، ولا أمارس الكتانة صحبح دينى ، بل بصهج فكرى ومن مطلق إيسائى ، ومن المستوى الذى يعنى الدس كفه ، ويشترك فيه كافة العقلاء

إسى مسيحى أحل ، ولكى لا أكتب بالنظرة العقائدية المسيحية ، وأكتب عن الاسلام ، ولكن ليس بالنظرة العقائدية الاسلامية ، بل بالنظرة الاساسية لعامة اكتب عن الانسان للانسان بما هو إنسان

هذا الحاجز النفسى

من كان مثلي من دعاء لبقطة لعقلية في كافة أمور الاسان حقيق به
- يحارب أسلوب حدع النفس ، الذي يشبه حال لعمدة التي يقال لها
تدفن رأسها في الرمال حتى لا ترى ما تخافه أو مالا يرونها

أحل حقيق ما أن تنصارع بلا موارد ، فلحاحر النفسى بين عامه أهل
الديانات مصدره الجهل من حيث من أصيب بهذا الحاحر النفسى ، وهذا
المصاب يكون أحداً أحد الطرفين ، وأحياناً أخرى يصاب الطرفين كلاهما
بعد حاحر بدى قد يشف بحيث لا يراه المصاب به ولا يدري بوجوده وإن
كان في الوقت عينه يخج عنه - أو يلو ، أو يشوه - مالدى الطرف
الأخر ، وهو حسب أنه يرى ذلك الطرف الآخر على حقيقته

هذا الموضع الشئ - وضع التحاحر النفسى - تبيحه طبيعته للجهل ،
بل لوع يريد من جهل ، هو سب تعصب ، وهو ثمرته أيضاً ، فهو
الوالد وهو الولد في آن واحد !

ومن حق القارئ أن يتساءل : وكيف كان ذلك ؟

ولأمر سب ، إن نحن قمع المصر وشاهد أن فطرة الاسان
اسوى ندعه بين معرفه ، مدفوع بحب الاستغلاء لمركب فيه ، مد
الصفونه ، فهو لا يدع شيئاً من حوله لا يتناول بحواسه بيكشاف ما هو
وكيف هو ثم مع تقدمه في مراحل العمول يلبث أن يسأل لماذا هذا الشئ
هكذا فالاسان مصبوع على حب لمعرفة ، ولا يهدأ به بل ما يمكن

يبدو و محقق القدرات الذهنية - حتى يعرف كل ما يقع تحت
حده .

ومن هذه السدرة تنمو كل العلوم والمعارف التي لا تقف أمام حاجر
مكدر و يساهم مهم بعدت عنه بعد الحجوم في مسالكها . ومن هذه السدرة
أيضا - وفي بصر طبيعته الاجتماعية - يصبو الانسان السوى إلى معرفة غيره
من الناس ، مهما بعدت الشقة بينه وبينهم أيضا . فكانت منذ أقدم
العصور كشوف الرحالة التي لم تحل دوما مشاق السفر وأحواله ومخاطره .
وكان ندين لكائنات وعرايتها عن مألوف الانسان مما أدعى لاستشارة
حب الكشف والاستطلاع فيه

ومن العجيب إذن أن نرى أصحاب ديانتين متبايتين لا ينشب بينهما
حب لاستطلاع الطبيعي المعهود في سائر الأمور . مع أنه قد لا يفصل
بينهم تسع لمسافة ، ولا فارق للغة ، في حين شحذ هذا التباين اشتاء
غيره أهدد لم يعقهم بعد الموطر ولا غرابة اللغة عن البحث في أمثال
« من يهد من مقولة » مقولة للعقل أو مردولة « و الملل والحل » وما إلى
هذين الكتيبتين من أعمال فكرية يحسى المرء أمام ما تمثله من حب المعرفة
وكشف ما هو من أمور لشر مجهول أو غريب ، على ما في ذلك العصر العابر
من ضعف الوسائل .

ولكن أولئك الفرأورد من أهداذ المفكرين . وليس حديثا هذا عن
الخاصة . بل عن « عمدة » لاس . وكيف أنهم - مع توفر الوسائل
وحضور الموضوع بين طهرائهم - لا تشبط فطرتهم الصعبة لمعرفة
عقيلة برهة وهي الفطرة - التي حفرتهم مد اطفولة على معرفة ما حولهم من
« لاشء » يعرفون شجرة و حمرة . وبين لأفعى و حرس . وما شاكل
ذلك . .

كيف حدث أن عمده لاس في أمة واحدة ، إذا وجدت فيها ديانتان ،
قامت معرفة كل فريق لديانة الفريق الآخر على غير الاساس الطبيعي الذي

معروف به كل ما يعيهم من موضوعات بينهم ؟ مع أنه لا حائل هناك من بعد مكان ، أو اختلاف اللغة ، بل إن الفريقين يتحالفان في كل ساعة من ساعات النهار ، في الأسواق ، ودور العلم ، ودور النهو ، وكافة مشاغل الحياة ، فيما عدا دور العادة ، بعير فواصل ؟

إنه المحاجر النفسى ، وهو من ذلك النوع الماكر الذى يلون الرؤية ، من غير أن يشعر الرائي بوجود هذا العامل الكامن في سريره .

ولست أعنى أن سبها تعاغضا سافراً بالضرورة ، بل أعنى أن المحاجر النفسى لها يعطل المعرفة السوية الربية ، بحيث يكتفى الفرد بالتعامل مع الطرف الآخر باحسنى والتهذيب ، ولكن بغير معرفة صحيحة واضحة لمكوناته الاعتقدية التى هى أشبه بالوصلة التى تحدد به أنماط سلوكياته بوجه عام .

وهكذا نشأ حالة عرية . فقد يألف الفرد من هذا الفريق فرداً من الفريق الآخر ، بحيث يأتمنه على ماله وعلى عرصه وعلى دفائره سره ، ويحمد منه خلائقه جميعاً ، ولكنه إذا سأل نفسه عن « الوصلة الاعتقدية » لذلك العشير استولى عليه نفور عامض ولكنه حاسم

إن النفور مما هو « مبس » أو « مختلف » أو « غريب » وهذا نشاطه أثر « المحاجر النفسى » واضحاً ذلك الأثر الذى يكفى لتصوير حسامته أنه بوقع صاحبه في تناقض فادح فهو في الوقت الذى يحمد فيه سلوك إنسان وانحماياته يعتقد بصرار أن « بوصلته » مختلفة ، بعكس « بوصلته » هو !

إحدى اثنين أيها العقلاء . إما أن تكون الوصلة سليمة فاتحهااتها إذن سليمة ، وإما أن تكون مختلفة فاتحهااتها إذن مختلفة أليس الدين المعاملة ، أى السلوك ؟

لشأن في حالة « المودة » الشخصية والثقة الفردية بين المتحالفين في

إيديّة ليست الحالة الغالبة ، فأهل الصداقة والإخاء جماعات صغيرة ،
بحكم « فردية » مثل هذه العلاقات . . . والحاجز النفسى هاهنا
لا يكتشف إلا بامعان النظر ، وغالبا ما يصرف كل من الطرفين ذهنه عن
هذا الجانب ، وإن لم يخل من أسف لأن خليفه له عقيدة مختلفة ، وهى تلك
العقيدة التى لا يعرفها المعرفة الموضوعية المحايدة .

أما الحالة الغالبة فى عوام الأمة الواحدة التى بها ديانتان ، فهى وجود
هذا الحاجز النفسى حبا إلى جنب مع « العايش » السلمى ، وتبادل
المحاملات الظاهرية ما استقامت الأمور . . . حتى إذا تعكرت الأجواء ،
برز الشقاق من مكمه ، وكشرت الفتنة عن أيلها !

فحكاية هذا الحاجز النفسى ؟

به لعمري مما هو مختلف ، كما تنفر الدحاحات البيضاء من الدحاجة
السوداء ، فتوسعها نقرا . . .

ومع علاقته بالجهل ؟ أمى علاقة المانع من نشاط المعرفة نشاطها
نفسى للتعرف على حقيقة « ما هو مختلف » ؟

لو كان هذا صحيحا ، لكأن الحاجز النفسى سببا فى أن يجهل كل
صرف ديانة الطريف الآخر ، بمعنى « لا يعرف عنها أى شىء » ولكن الأدمى
أن جهل الذى يتسبب فيه الحاجز النفسى ليس « انعدام المعرفة » انعداما
تاماً ، بل هو « معرفة متبوية أو مشوهة أو منحرفة أو متحاملة » فاجهل
التمام انعدام رؤية ، وانعدام رأى ، أما هذا الجهل فهو رؤية طاملة !

ومن المعلوم أن العوام قوم يعيشون بالفعل انهم أكثر مما يعيشون بعقولهم
ولذا نخدعهم فلما يقدرون على صسط النفس ، ومن الطبيعى أن نجد كوامن
الصور من « المعدن الغريب » فرصتها المواتية لتزويد تركيبهم الانفعالى
بأفئدة لدى يريد الشر اضطراراً ، وهذا أقل حلاف يتجاوز حجمه الطبيعى
ويسقط إلى فتنة تتسبب إلى الدين رورا وبهتان

أما من رتفعوا تهديدهم عن طنقة العوام ، فقد ألغوا صسط النفس ،
وبس من السهل أن تتحول خلافاتهم إلى مثل هذه الفتنة .

وأقول من رتفوا تهديدهم ، وأعنى ذلك ، ولا أحبط بسبه وبين درجة
التعقيم الرسمي فكهم من متعلم رسمي هو خير في مهنته أو مادته ،
وكبه غير مستنير ، الفكر مهذب النفس ، بحيث يتحكم عقله في مشاعره
ومنه حينئذ أن يكون فريسة لتحجر النفس الذي يشحنه بالروى الطائفة
للفريق الآخر ...

وهاها نتصح أهمية التربية وأنا من المعيين بها على المستوى الفكرى
لا لمهى ، ولذا أتيج إلى أن النفس أنها بيت الداء في معظم الافات التي
نصاب بها أى أمة ، لأب هي التي تشكل الساء النفسى والفكرى والأهم
السلوكية للمواطن .

ومن أبرز التي تنبع من سوء لتربية ، بث الأذية في السلوك وبث
الدائيه في التفكير . وأعنى بالدائيه في التفكير عدم احرص على فهم الأمور
على حقيقتها الواقعية ، وعلى فهم الأشياء والأفكار والمذاهب على ما هي
عليه في « حواشيها » ، بل الانزلاق إلى فهم «لأشياء تنصورات « برائية »
يريف ها حقيقتة التي توفى هوى امرء

ومن أمثل عناصر دائمة التفكير ، أن من يختلف عما فهو تحقيق دائرة
لنفسه وبراءة أو العدا . وهو على حسنه موقف تضاد للافتاح الفكرى
والنفسى . فيأتى التصور أو الفهم مبنوا هذه العدوانية أو
سوحسية . وهذا السعى ، ينسب على تفكير مدون بمشاعره الدائيه لى
يسكن . توصف بأن وصف ماعد « لإصاف » و « اسرهة »

ولصرب مثلا بالأمهات اللاتى بخص كثير من الصفات السيئه
والعربية لما يحالفهم أو تروعهن عرائنه في دار لأطفال . ولعربة حائل
ميع نون قيم الدهر بتصنيف الموضوع العرب طبقا للوعيات أو الفتات

لمعهودة له ، والطبيعة تأبى الفراغ ، ومن ثم تنشط المحيلة للـ الفراغ
 - الأساطير ، فإذ كان الموضوع الغريب مما يستهوى النفس بجمالها مثلاً ،
 جاءت الأساطير حافلة بما هو مشرق وجميل ومضى . وإذا كان الموضوع
 لغريب مما يصدم النفس ويثرها وجسها ، جاءت الأساطير حافلة بما هو
 قبيح وقبيح ...

و اختلاف العقيدة لا يثير عالياً لدى الجاهل - للوهلة الأولى - عوامل
 شين والأسهر . ومن هنا تكون التحيلات التي تملأ فراغ الجهل بحكمة
 أو متعة ، لأنها إسقاط للأحاسيس والمشاعر الدينية . . . انتلقائية .

وهذا الخوف الحراقي الذي يعوض به الجهل نقصه ، يملأ الناس
 - . . . عن خلاف الخوف البريه لقائه على المعرفة ولاستئارة الموضوعية

ومن شائع لدى الجهلاء - وهم غير فقيين للأسف - أن يطعنوا ذلك
 بفتح تحقيرى بعقيدة مخافة يتوهم في نفوس صغارهم بؤس من الخزيه
 لعقيدته صغبر حتى لا يتعرض بيمانه بعض للنسبة إذا ما ترك الباب مفتوحاً
 لمعرفة واسعة وتوسعت موضوعى في العقائد الأخرى

« كل هذه » اداتية « لمعرضة في التفكير والتصور ، تؤدي إلى توحش
 عادات الفكرية والسلوكية معا ، فيشتب الصغبر وقد انطقت مهبى مهدت
 معده ، لأصاحت لعقيدته مخافة - عن سوء حال نفسهم ، وأتمه كمنه
 به « حيداً هكك » وكثيراً ما تسمع من يقول : « به على غير دينا ، وكمنه
 حل من ، ومهدت ، أو ما إلى ذلك من اصصت » ، كأي حداث
 عصمت حسنه سديراك مصرود عن قاعدة كاد من شأنها أن تؤدي إلى
 عن هذه احساس ، مما يقطع بأن هذه القاعدة لا توحى إلا سوء من
 برريه

وهذا مثل شانه حاجر النفسى وتأصده في عقشه من الآراء والأمهات

وما من شيء يحول دون هذا الحاجز النفسى مثل المعرفة التزيهية ولكن الحاجز النفسى الذى يبدأ فى الصغر غالبا ما يحول دون تلك المعرفة . لأن ذلك الحاجز النفسى يرسخ دعائم الجهل بما يصد النفس عن طلب المعرفة التى تمحو هذا الجهل . . . فتشيع لدى الفرد العداوة لما يجهله والمرء عدو ما يجهل عادة والزراية له ، ومن ثم ينشأ القطاع العريض من التعصب . سواء فى هذا التعصب التمييز العنصرى أو اللونى أو الدينى . . .



وما أشبه هذا الذى يحدث لدى الناشئ من الحاجز النفسى . بما يوقعه الجهل فى نفوس الصغار من أن الغرفة المظلمة المغلقة الأبواب بها « البع » . . . وما البع إلا إسقاط مجسد للمخاوف الكامنة فى النفس ، تلك المخاوف . وذلك البع بالتالى . . التى لا يمكن أن توجد إلا بسبب الجهل وظلماته الحافلة بالتهاويل . . .

فالحال قريب الشبه جدا ممن يرى أقواما يغدون ويخالطون غيرهم فى الأسواق والمحافل ومناشط الحياة والعمل والعامل مثل غيرهم سواء بسواء ، وكل ما هناك أنهم يسكنون حجرة أو حجرات ضمن البيت الكبير يغلقونها عليهم إذا دخلوها ، ولم ينح لغيرهم أن يدخلها . فينسج الخيال ما يعوص به نقص المعلومات الحقيقية عما فى داخل هذه الحجرة ، فيكون نسج الخيال فى هذه الحالة ممثلا للعراة وسوء الظن أى ممثلا للحاجز النفسى . . . أو ما يقابل فى عالم الصغار « البع » المرهوب المفرع .

ولو عكسنا وجهة النظر ، لوجدنا أن من يعتقد بوجود البع فى حجرة الفريق الآخر يأوى أيضا إذا خلا الى نفسه لحجرة يغلقها عليه ، ويراه الفريق الآخر حافلة بالغوامص والاسرار و « البع » التى يصورها له الجهل والحاجز النفسى .

ولا عرج صده الاحوال علاجاً يقضى على خرافة « البعع » هنا وهناك ، الا بتقويض كل اساس للحاجز النفسى هنا وهناك . ولا يكون ذلك الا بالقضاء على الجهل هنا وهناك . والحل فى هذه المسألة هو بعينه الحل فى علاج الطفل المرتعد فزعاً من « البعع » فى الحجرة المغلقة : بفتح الاسواب ، واضاءة جميع الانوار ، فىرى انه ليس فى هذه الحجرة شىء يخالف فى اساسياته ما فى حجراته هو وأهله .

أجل ! أضيئوا جميع الانوار ، كى يرى كل طرف ما لدى الطرف الآخر على حقيقته بغير خفاء فتطمئن نفسه ، ولا يبقى ثم اساس يذكر للحاجز النفسى . فالكمل يعبدون الاله الواحد ، وان اختلفت الاساليب ، الا ان المعنى واحد ، والمقصود واحد . ولكل فريق بعد هذا انتهاء الى عقيدته التى لا يجهلها الآخرون ، ولا يسيئون فيها الرأى عن جهالة ، ولا تحف بها فى وهمهم الخرافة التحقيرية المزدرية . بدافع الكراهية العمياء .

بذلك يكون لكل فريق انتهاء الإيمانى ، مع التواد الذى لا تعشش فى كفه بغصاء ، ولا ينبت منه تعصب أعمى ، يجمع بين الجهل والتهور ، ويعبر عن سلوكيات عدوانية ، شأن كل كراهية .

ولكن الحاجز النفسى الذى نشأ بحكم فساد التربية النفسية والفكرية يقاوم اضاءة الانوار ، ويحرص على عمية الجهل ، ويدافع عنها باستماتة ، فى الحالات « الحادة » من استفحال ذلك الحاجز النفسى ، ويأبى أن يصدق كل حديث صادق عن حقيقة الفريق الآخر . وفى هذا شاهد عظيم الدلالة على أن الحقيقة لا تقنع إلا الإنسان المخلص فى طلبها والمستعد لتلقيها فى نزاهة وخلو من الهوى والتحامل . أما من احتشدت نفسه بالاهواء المفرضة ، فالمعرفة النزهة لا تجد عنده قبولا ، لأنه أشبه بمن يضع على عينيه عدسات لاصقة ملونة أو متنوية السطح ، فلا يمكن ان يرى ما يوضع امام بصره - مهما قرته منه وحلوته له - الا ملونا أو ملتويا .

وذلك كاف كى يدلنا على انه لا جدوى من اضاءة جميع الانوار ، ما لم نصلح الأبصار والبصائر أولا ، وننقى عنها ما يزيغها ويضلها عن حقيقة المراثيات .

أجل ! إن إصلاح النفوس والعقول لإزالة الحاجز النفسى مسبق على الحملة ضد الجهل أو الأمية . . . كما أن اصلاح العيون مسبق على الاجتهاد فى فتح السوافذ واطاءة جميع الانوار . .

« وقد تكرر العين ضوء الشمس من رمد »

والرمد النفسى هو الذى يعيه بالحاجز النفسى ، لأنه يبطل جدوى كل سعى لاطاءة الانوار ، ويجعل حملات التنوير والتعريف عملا عقيما لا يصيب اصحابه الا بالحسرة والاحباط . .

فالتحيز هو بيت الداء ، ولا جدوى من محاربة الجهل بالموضوعات ما لم ينتف التعصب والتحيز الذى تنحرف به التصورات وتزيغ التصديقات .

ومن شواهد ذلك ما مررى من تجربة شخصية . فالذين أهلهم استعدادهم القطرى للنزاهة أو يفهموا حملتى للتعريف والتنوير العقل الموضوعى فى محال الاسلاميات ، وأن يتبينوا بفطرتهم النقية أنها ليست عملية تحيز لعقيدة أنتمى إليها ، بعد أن ناديت فى كل كتبى أن استأثى للعقيدة المسيحية بلا حفاء أو موارد . ولكن غيرهم ممن تنطوى أعماقهم على التحيز لما ينتمون إليه من هذا الفريق أو ذاك ، ولا يتصورون موقفا يعلو على هذا التحيز أو يتخلص منه ، لذا ساورهم الطش أن وراء واجهة عدم التحير الفكرى التى أعلنها للناس ، سريرة متحيزة للإسلام والمسلمين . . وكم مسنى من هذا ضيق وإعانات شديد !

وليس الضيق والاعانات لما ينزل بمشاعرى الشخصية فحسب ، فما كان أهول هذا ، بل الجباب الاكبر من هذا الضيق مصدره ما أشعرى من

انى أرمى بما أحاربه فيهم . اى اننى اتكلم لغة غريبة لا يفهمها من
اخاطبهم ، واننى وقفت جهدى لقضية محكوم عليها بالعقم ، لأن العامة
غير مستعدين لها . . .

وكلما سمعت نبأ قتنة دينية فى جزء من الوطن العربى انتابنى
الاكتئاب ، وشعرت انى لشت قرابة ربع قرن « أنفخ فى قرية مخرومة » .
ورحت ألتمس العلاج من هذا الاكتئاب ، وكان المعالج صديقا
يمحضنى محبته ويشفق علىّ ، فقال لى :

- أفهم شعورك فأنت تحس احساس من طابت نفسه ان يحترق
ليضىء ، ولكنه احترق فى حجرة مقفلة ، أوفى صحراء مقفرة ، فلم ينتفع
بضوئه أحد ، فكأنك تحترق عبثا . ألم تحدثك نفسك انه آن لك أن تنفض
يدك من الكتابة عن أمور المسلمين ؟
فقلت له :

- بل أنا أعد نفسى للكتابة عن عمر بن الخطاب ، ثم عن عثمان ، ثم
عن . . .

ولم يدعنى أكمل ، بل صاح بى مشفقا :
- رويدك ! . . . أنت تعيب على عوام الذهن أنهم لا يفقهون موقفك
الفكرى المبدئى . . . فلماذا لا تريد أنت أن تتعلم الدرس . .
- أى درس ؟

- درس عقم المضى فى هذا الطريق . . وأنت كاتب روائى وشاعر
ومترجم وفيلسوف ، فلماذا لا تنصرف بكليتك إلى هذه الامور التى
لا يلحقك منها مضاضة
فابتسمت وقتت :

- على رسلك ! لم يغب عنى هذا الدرس . وهو درس ظاهر لا يحتاج الى بصيرة كى تعب . ولكنى وعيت إلى جانبه درسا آخر ، غير طاف على السطح !

- وماذا ؟

- وعيت أن الداء وبيل وميزمن منذ قرون ! ووجدت أن ذلك يفرض على وقد ندبت نفسى لمقاومته بعد أن وعيت أبعاده وأهواله أن أوصل الكفاح ، لا عن عناد ، أو حب استشهاد ، بل عن إدراك لما قيل فيها هو فرض عين ، وما هو فرض كفاية . . .

- وما فرض العين ؟

- إنه ذلك الواجب الذى إن لم تقم به أنت لم يكن من المتوقع أن ينبرى للهوض بأعبائه سواك . أما فرض الكفاية ، فهو الواجب الذى لا ينحصر فيك ، بل يلزم أن يقوم به من « يكفون » لذلك ، ومتى وجد العدد الكافى ممن يهضون بأعبائه لم يتعين عليك أن تشتغل به . وما شطى الأخرى . بين المفلسة وعلم النفس والقصة والشعر - فرض كفاية . أما موقفى من الإصلاح النفسى والعقل لارالة الجاحر النفسى وإضاءة جميع الانوار ، وقيام الوحدة الانسانية والقومية بين شقى الأمة ، فذلك يا صاحبنى ما صح عندى أنه فرض عين ، فتلک مهمة قمت بها منفردا ، ومارلت منفردا بها ، فمن يدرك أخطارها وابعادها لا تواتيه الجسارة على الانبراء ها . فإذا بفضت يدي منها لم يحمل عبرى شعلتها . فمن اين لى الخلاص من هذا الواجب ؟

- ولكنه عمل قليل الجلودى . . .

- لأن الداء مستفحل ومتأصل وخفى عن الوعي ! وإنما يحتاج المرضى الى الطبيب ، لا الاصحاء ! فكيف الآن تدعو الطبيب الذى يجد مقاومة من المرضى ان يتخلى عنهم وينتقل الى حى ليس فيه وباء ؟ . . كيف أتفرغ للفلسفة أو الشعر أو الرواية أو الترجمة ، حيث لا خطر ولا وباء ،

واسرك ذلك الحاجر النفسى الصلدا ؟ أفى استطاعتى ان احترم نفسى بعدها ؟ .. وما على من الجدوى ، فليس هذا من شأنى ولا مسئوليتى . فكل مسئوليتى منحصرة فى بذل الجهد . « أذ الواجب ، ودعك مما يكون ! » .

- اجعل إذن هذا الشعار العقار الذى تقاوم به الاكتئاب ، كلمها هزت نفسك أبناء فتنة دينية ، فى لبنان ، أو فى غير لبنان ، مما يقدم عليه السفهاء فى أى مكان ..

- إذن ، لأمضين فى الكتانة عن عمر ..

وهمت بالانصراف فإذا بصاحبى يقول :

- سؤال أخير : لماذا تكتب عن الاسلام أكثر مما كتبت عن المسيح ؟ لماذا مكافحة التعصب فى جانب واحد ؟

فتنهدت وأنا أقاوم نفاذ صبرى وقلت :

- لأنى أومن بهمانادى به السيد المسيح : قبل أن تخرج القذى من عين أخيك ، أخرج أولا « الخشبة » التى فى عينيك ! ... وهذه واحدة ، ...

- والأخرى ؟

- أن من أراد الاصلاح فليصلح أهله قبل أن يصلح سواهم من الناس ، ليتعقب أهله بالاصلاح مهما اشتد ، فهو مجلبة نفع لهم ، إذ يعلمهم الانصاف ، وهو مصلحة لهم قبل أن يكون مصلحة لمن ينصفهم ... أليس كذلك ؟

- بلى ! الآن فهمت ...

- وأرجو أن يكون غيرك أيضا قد فهموا ... والآن دعنى أنصرف ، فإننى على موعد مع عمر .. الحديث أرحو ألا يكون قد دار مثله بيه وبين أحد من قبل ...

کتاب آخر عن عمر ؟
لماذا ؟

ومن حق أى قارئ عربى أن يتساءل

- ولماذا يكتب بظمى لوق كتابا عن عمر بن الخطاب ، وقد سبق إلى الكتابة عنه فى هذا العصر علماء شامخون من أعلام الفكر والأدب ، هما عباس العقاد وحسين هيكل ؟ وهل تركا قولاً لقائل ؟

وهو سؤال له وجاهته - والاحاطة عنه تقتضى نظرة هادئة إلى علاقة أى كاتب بالموضوع الذى يتناوله - ومحض هذه العلاقة أنها علاقة فكر له مبعث معين ، وبص ها مراح معين ومن ثم له رؤية معينة للموضوع .

ولقد كان ما يكتبه هيكل أقرب شئ إلى السيرة التى نتعقب الأحداث والأعمال بالرصد والتسجيل والتحليل ، وتنتهى إلى تقييم شامل متوازن

وأما العقاد فلم يفارقه حس الشاعر ، وحماسة العاشق ، وهو يعمل فكره فى تصوير شخصية عمر وتفسيرها ، فلم يفارقنى الاحساس أسى أمام موكب منكى رثع أقامه العقاد لحبيب عمر ، وحشد له طاقته المدهلة فى المنطق والملاحة وسحر البيان ، فجاءت عباراته أشبه بعرية مدهية تجرها الحيد المظلمة ، ويحف بها الفرسان الدارعون الصناديد !

أفاكتب عن عمر سيرة أخرى ، أبارى بها الدكتور هيكل ؟ ليس هذا انغماهى ، ولا أرب لى فيه . ولا حاجة إليه أيضا ، ففى السيرة العمرية التى كتبها الدكتور هيكل كفاية لا أحس حاجة معها إلى مزيد ، وليست الزيادة عليها ميسرة لمن شاء . فالصمت إذن أولى !

أفأكتب قصيدة ثرية أخرى في تمجيد عمر بن الخطاب ، كذلك التي
حاء بها العقاد فحانت معجزة في الصخامة والسحر والشعور الدافق
المتقد ؟

واعوثاه ! من أين يأتي لي شيء كهذا لو أردته ! وهو شيء لا أرب لي
فيه ، ولا هو من مقصدي على كل حال .

فهو مرادى إدد من هذا لكتاب ؟

مردى منه ، وبه ، أن يكون رؤيتي الخاصة لعمر بن الخطاب

فماهي سمات هذه « الرؤية » !

إنها رؤية إنسانية محض ، مدنية محض . تتناول عمر بن الخطاب من
حيث هو بشر يتمثل فيه مستوى رفيع من الصفات الإنسانية تجعل منه مثلاً
رفيعاً لكل من ينطوع إلى المثل الرفيعة في السلوك والهوض بالأعلاء
الجسام .

رؤية تنحصر في تبيين عمر الإنسان الذي نعم فائدة التعرف إليه البشر
جميعاً فهي ليست رؤية « دينية » بعينها ما قد يرتفع بعمر بن الخطاب عن
المستوى البشري ، وما قد ينسب إليه من صفات ووسائل حارقة لا يتيسر
الانصاف بها لكل إنسان .

الكرامة في هذه الرؤية هي كرامة « السطل » ، وتفوق سلوكه لا مصدر
به إلا ذلك التكوين « البطولي » ، الذي لا يستمد مكانته من القدرات
المتنعة على سائر الناس ، بل من الاحتشاد الأساسي لمحض للمستويات
التي يلتزم بها من تنقاء نفسه ، ويدب لها نفسه قياماً بحق الحياة والمروءة .
ووسائله لتحقيقها هي - على الخصوص - وسائل إنسانية متاحة لسائر
الناس ، إن هم راضوا أنفسهم على تكاليف الأحدها ولا ينفرد بوسائل
احتص بها دون سواه . لأنه بذلك لا يهمل بالوسائل والموارد لا يكون
المثل ، ولا يكون للرجل ، بل يكون المعجزة !

وكتابتى عن عمر « الرجل والمثل » الذى تصلح سيرته الصولية حجة
على الناس ، واستفارا لكوامن الطولة فيهم

فليس لأحد أن يتوقع مى سيرة لعمر ، ولا قصيدة انهدر بعمر ،
بل دراسة لسيمات الطولة عموما من خلال صورة عمر ومواقفه ، وكيف
وجهت فطرة الطولة فى ذلك النطل المطبوع مراحل حياته ، وكيف شكلت
وكيفت أفعاله وتصرفاته .

« نطل مطبوع » هو على عرار ما يعيه حين نقول عن فلان من الناس
أنه « شاعر مطبوع » .

ولكنه أيضا صاحب مراج نفسى خاص ، يمارس به ضوليانه وهما
يحدد المتأمل المحال واسع لتميير ما يصدق أن يكون من تصرفاته « مثلا »
للناس كافة . لأنه ليس تعبرا عن مراحل تفرد به عمر الرجل فحسب ،
بل هو تعبير عن تجاوزه لداته إلى النمط الموضوعى الذى يستوى فى الانتفاع
به ، والاحلال إليه ، سائر العقلاء ، على اختلاف دياناتهم وأمرحتهم
النفسية .

عمر الرجل ، فرد له ذاتيته الخاصة كسائر الناس ، أما عمر النطل فهو
احشاد همة ترتفع فوق الدانية المحدودة لتحسيد مدد موضوعى يسمو فوق
الاعتبارات الدانية الخاصة

فسمه الرجل ، أن يكون العمل معبرا عن دانيته ومراحه الخاص
وأحواله المعينة . .

أما سمه النطل ، فإن يتحدور دانيته ومراحه ، فيكون مثلا لكل مى
الشر ، تلغى فى موحته الحوائل والخوخر الدنية والعشوية

ومن هذه الرؤية التى تحدد سمات الطولة ، وتكرس النطل وطبيعته
انفسية ، يحدد القارىء فى هذه الصفحات مودحها فى عمر من الخطب ،
يصرف فى أعماله ومواقفه بين ما هو خاص لعمر الرجل ، وما يرتفع إلى
ما فوق ذلك عن سلوك الطولة ، التى هى القدوة والمثل .

بطل ولا قضية

معنى البطولة

حذر بصاحب الفكر المدقق أن يحدد المعنى أو المفهوم ، وبين مواضع
افتراقه عن المعنى التى تقاربه أو قد تختلط به إلى حد الالتباس .

فما هو مفهوم البطولة ؟ وما تحومها التى تنفصل على امتدادها عن
المفاهيم التى تقترب فيها أو تلتبس بها فى ادراك الناس ؟ مثل مفهوم القوة
التي تصل إلى حد الخيروت ، أو مفهوم العنصرية .

يشيع عن الألسنة الكلام عن البطولة فى أنواع الرياضة عند الكلام
على البطولات العامة ، كما يشيع الكلام عن البطولة عندما يروع الناس
ما يبديه شخص عن فوه التحمل والتحمل للمصاعب أو الأرزاء والمحن .

وملاحظ في هذه الاستعمالات أن البطل شخص يتميز بالقدرة
الفائقة ، إذ كان من المرربين فى الملاكمة أو لعب الكرة أو حركات السباق
فالتفوق على الأقران والمنافسين يوحى بهذا المعنى للبطولة المبدية .

ولكن البطولة قد يطلقها الناس أيضا على غير دى قوة بدنية خارقة ،
بل قد يوصف بها الحيل الضعيف السية ، إذا ثبت أمام المحن ولم تكسر
له عودة ولم تحطم له إرادة . مع أن المثبت السية قد يهار أمام هذه المحن
بنفسه لو أنها برلت به فالبطولة هنا تفوق فى الصعوبات والتحديات المعنوية .

وقد يوصف بالبطولة انسان لا حول له ولا طول ، لا شىء إلا لأنه
ثبت للمعوية والاعراء الذين لا يشت أمامهما الأشداء من الرجال دوى

رأس والحول والطول يستوى في هذا الاعراء احسنى ، والاعراء المائى ،
ولاعراء بالشهرة ، أو التهديد بسوء السمعة مع الاقتدار على هذا
لتسوى . ولشأت لهذه المغريات أو التهديدات قدرة حارقة بادرة في بنى
الانسان . . . وهى قدرة خلقية .

وإطلاق صفة البطولة - على الروح المدح على الألسنة - ملحوظ فيه ،
أن كان محل هذه البطولة بالصورة التى يساها ، أنها تلحق بصاحب التفوق
في قدرته على أمثاله ، أو على السواد لأعظم من الناس

ولأحدر هذه الصفات أن تلحق بباب القوة أو شدة المراس أو الحبروت
أو صلابة ، لأنها أمور تتفرق فيها وحيه التفوق بين بديهة ومعنوية
وحلفية ، وقبله تجتمع لشخص واحد

فإذا أحدا التفوق في اللياقة البدنية وممارستها ، قد يجد الحمار الذى
يرطف حروته للسيطرة على الناس وركوب اكتافهم وإدلال اعاقهم . فقوته
هـ وتنفوه فيها أدخل في باب القوة البهيمية التى لا يضبطها صابط من
تورع أو صمير أو عقل يحترم القيم التى لا ترد على خاطر من تستغرقه
لشهوات وحب لذات وينصرف إلى تأكيد ذاته بما أوتيته من قوة

فإذا ينقص الحمار العاتى ، كى يكون حديرا بصفة البطولة ؟

نترك هذا مؤقتا وننتقل إلى الضعيف لسية الموصوف على ألسنة الناس
بالبطولة لأنه يشت بارادته الحارقة للمح والارراء التى ترحر بها حياته
الخاصة .

● هذا رجل قوى الارادة بصورة فائقة فيما يعحر عن الشأت له معظم
الناس ممن هم أقوى منه بنية أصعافا مصاعمة ، فلماذا لا يستحق مثل
هذا الانسان اسم البطل ؟

ثم ذلك الانسان الذى يشت أمام اعراء الثراء الفاحش ، والسلطان
معريض ، والجهل الصارح ، وهو صغر اليدين من ذلك كله ، وشديد

الاحساس - الحاجة إليه ، فهاهو بالسيد ولا الخامد الحس ، لماذا لا يطنق
عنه كي يطنق عليه الناس صفة الطولة ؟

يقول ن هذه كلها وجوه من التفوق اخرج ما فيها مراء ، ولكن مفهوم
التفوق لا يكفى وحده لقبام مفهوم الطولة ، بالمعنى الدقيق الذى نعنيه

فاصل الذى نعنيه انسان متفوق ، القدرة ، ولكن تفوقه ليس محصورا
فى محاله الخاص ، شأن الثالث للمحن والثابت للاعراء أو لوعيد فمجان
الطولة عند هو المحال العام ، الذى يتصل بحياة الناس ويعمهم
الانتفاع به .

وقد يقال ان الحمار العاتى يهرس جبروته لا فى مجال حياته الخاصة ،
بل فى محال حياة الناس العامة . وهذا صحيح فى الظاهر ، أما فى الواقع
فمهرسته لجبروته استعمال للحياة العامة ، وللناس عموما ، لحساب ذاته ،
أو لحسابه اخص كما يقولون - فهو يعيش على الناس ، ويستهلكهم ،
ولا يعيش - كما يسعى للسطل بمعنى الكمية - للناس انه يتفوق فى
الأحد ، أما البطل بالمعنى الذى يقصده فمتفوق وفائق فى العطاء . . .

ولذا قد يكون للسطل الذى نعنيه جبروت العاتى ، ولكن بغير عتوا
وجبروته للناس وليس على الناس . وان كان جبروته على أحد ، فهو على
ذاته الصغرى - حساب ذاته العليا التى تتحدد من الذات الصغرى ، ومن
شئى الصغائر ، لتكون مثلا مجسدا لقيمة أو قضية عليا ، ليس فيها شئ
ذاتى أو خاص ، وإياها هى قيمة أو قضية موضوعية عامة ، تعلو على جميع
الدوات أو لأشخاص ، وتعم جميع الدوات العليا التى تدين بهذه القيمة
وتتفياها .

وفى هذا السطل صفات من تفوق فى قوة الارادة ، وفى الثبات أمام
المغريات ، ولكنه بقوة ارادته وقوة حلقه ومساعة طبعه لا يوظف هذه
الصفات لعائقة فى محال شخصه ، بل فى المجال العام

فمن أجل هذا المعنى صفات التفوق التي تنفرد في الأبطال بالمعنى
الدرج على النسبة الناس ، ولكن هذه الصفات فيه كالشمس المشعة بذاتها
على كل ما حولها . وهؤلاء الأبطال الآخرون إنما هم أبطال على سبيل
السحر ، أو المحر ، وهم أشبه بالأحجار الثمينة التي لا تنبع ضوءها من
تبعها بنفسه ، بل تستعيره من سواها . فهم أقباس من الطويلة أم الطويلة
الحقة فهي ذلك المعدن الددر بذرة الشمس ، الذي يهر الناس ويصع
ويجعل نفوقه في خدمة قضايهم أو قيمهم الكبرى

وهو في تفوقه لو لم يكن مطبوعا على : تحاور ذاته ، ، أي ذا طبيعة
شائعة لا امتصاصية . لكان تفوقه حسيب القدر ، مصرفا لخدمة ذاته
محدوده ، مسحرا الناس في ذلك

والنفوق إذن ليس هو ذات معدن الطويلة ، بل تلك الاشعاعية ، أو
تجاوز ذات ، أو النجوة ولشهوة والتجرد والراهة والرفع عن الانتعاعية
أو النفعية .

فصغار الأبطال يفعيون مستفيدون من نفوقهم ، أو يقتصر نفوقهم على
مجالات حياتهم الخاصة .

أما الأبطال الحقيقيون فلا نفعية فيهم ، ولا قصور ذاتي ، ولا حدود
لعطائهم . . .

وستقل إلى مفهوم آخر قد يلتبس لدى الناس بمفهوم البطولة ، وأعني
به مفهوم العبقرية .

قد يكون العبقرى طلالا ، وقد لا يكون .

والعبقرية إذن خلاف البطولة

وأول ما يتبادر للذهن في تعيين النجوم الفاصلة بين المفهومين ، إن
سئل لا يكون طلالا إلا إذا كان محال بطونته وتصديده للتفوق هو محال العمل
، مرافق العملية والسلوك العملي

العقري قد يكون أحما عمل ، وقد يكون أحما فكر لا علاقة له بالعصر
من قريب أو بعيد . وفي هذه الحالة لا يكون العقري بطلا بأي معنى من
المعاني ...

وبحسب هذا أن نصرت أمثلة ليصبح التحريم الفاضلة من
المفهومين ، من من موعده تاريخ الشريعة

هذا مثالا معينا سقراط ، عقري الفكر ورائد من أعظم رواد الحكمة
السطرية والعملية . ولكنه لا يتحلى بطلا ، لا عديم حوكم ، وحيره من
حيثه وبين الاقلاص عن تبصر الدس وإيقاط عقوفه ، فأنى التحلى عمره
واحده الأسمى ، وواحده الحكم عليه بالاعدام مرفوع الهمة موقوف الكرامة
ود در له بعض منحصرين من حواريه طريقة بقرار من سحبه ، ومن أئيب
إلى حياة امه في المهى الذى يختاره ، أئى أن يشتري حياته بهذا الثمن ،
الذى ببطوى على هدم سلطان القانون

هذه موقف بطولة اتقى إليه عقري الفلسفة الاعرفية ، فكأن
سلولته مثالا أعلى لشجاعة الايمان

وفي مقاسل سقراط العقري الطل ، يرى عبقرى من أبعد عاقرة
الشربة أثرا في تطور العلم ، ألا وهو جاليليو . الذى قلب الرؤية الاساسيه
للعرباء ومواريه ، وحقائق الفلك . ولكنا لا نستطيع أن نقول عن
هذا العقري العظيم أنه بطل

فحيى سيق للمحاكمة الدينيه أمام مجلس ناوى وتهددته المحاطر التى
قد تصل إلى الاحرق حيا ، أو التعرض للتعذيب الشيع ، ما لم يتراجع عما
أعلنه من دوران الأرض حول الشمس ، تراجع وأعلن أن الأرض ثابتة ،
والشمس هى التى تدور من حولها ، طيق لنقول السائد يومئذ ، بتأييد من
الكنيسة حتى ليعد كافرا من لم يقل به . كأنه حقيقة من حقائق الايمان !
وكار الفلاسفة والمفكرين عاقرة ، ولكن محلم هو النظر العقل أو

عنهم الحاصر أما المحال العملى فليس هم به شأن ، بل لعينهم
 حروب بعد عنه في إحكام أشبه بالخوف النفسى أو « الزهاب »
 . بعد عبقرى من عمقرة الفلسفة ، هو ديكارت الملقب بأبى الفلسفة
 الحديثة . يحرص على الحياة متعبا باحتيازه عن وطنه فرنسا فأقام في هولادة
 حيث نوح حرية اشترى عبر عراقيل أو وصايا أو رقعة وكان شعوره « عاش
 سعد من أحسن التوارى عن الناس » وكان يمعن في « استقية » ،
 ويغنى نفسه كثير من المشاق لافساح رحال الدين بأنه لا يخرج عن
 « الخط » الذى رسموه للناس . . .

بل به - في طى - كان هذا الاحكام عن التصدى للتعنت العممية
 أو صدق غير مباشر ، هو الذى جعله لا يتبع مذهبه الطبرى بتيخته أو
 تيريه صبيعية ، وهى مذهبه في الأخلاق
 فهو عبقرى بغير بطولة .

وعلى التقيص من هذا نجد في عصرنا الحاضر عبقريا من أبرر فلاسفة
 القرن العشرين ، هو برتراند راسل
 . راسل سليل أسرة من أعرق السلالات الانجليزية رفض أن يرث
 لقب النبودة عندما ل إليه عن أحداه ، ورفض أيضا أن يرث الثروة
 الطائلة ، لأنه يؤمن بأن الميراث ظلم اجتماعى فيه إهدار للتكافؤ في
 الفرصة وأنه ليس يحق لاسان أن تتمتع إلا بشعرات عمله وجهده
 وكان يؤمئذ مدرسا في جامعة كامبريدج ومن أبرر الفلاسفة وأعداد الرياضه ،
 وله اليد الطولى في ازدهار المنطق الرياضى وذلك موقف بطولى ولا مراء ،
 لأنه لا يخصص بآثره نفسه ، بل هو « بيان عملى » علنى بعيد الأثر في الناس
 لنصرة مبدأ يخصص النظم السائدة القائمة على الفوارق الموروثة بين الشر

ثم أعلنت الحرب العالمية الأولى ولم يكن معمولا في إنجلترا - وهى
 يؤمئذ أكبر إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس - نظام « التحيد الاجبارى

العام . بل كان كل شاب ورجل في بريطانيا يرى من واجبه أن ينظر فور النسخ في السهر العام ، كى يكون تحت تصرف القيادة العسكرية خير الامبراطورية .

وطبعى أن طلبة الجامعات العريقة كانوا أول من يسرى لندية مد الوطن . وعلى هذا الاسراء يتوقف مصير القتل . فإد بالاستاد راسل الشاب البعيد الضيقت والصوت بين مواطنيه يدعو شبيب إنحلترا إلى الكوص عن الطوع للقتال ، تاركين وطنهم بسمى بالهزيمة . لأن هذه الحرب إنما هى براغ بين القوى لكبرى على اقتسام المستعمرات وانتهاب ولدا فكل إنجليزى محب لوطنه حقا - يجب عليه ألا يشارك فى حزيمة استمرار الاستعمار ، بل يجب أن يعمل جهده كى يحقق هذه الامبراطورية الظالة للاساية أعجل الوار ، لنال الشعوب المقهورة استقلالها ، لأنه حقها الطبيعى . .

وطبعى أن من يقف هذا الموقف فى وقت الحرب فى بلاد أخرى غير إنحلترا يتعرض للقتل ، إما بيد الحلال بعد محاكمة عسكرية . وإما بيد شاب وطنى متهوس . ولكن عراقا الديمقراطية فى بريطانيا حالت دون إهدار دمه ، ووصلته الجامعة . . أما غضب الرأى العام - وهو فى العادة ، ولا سيما فى حالات الحروب ، غير مستير - فلم تكن له حدود . وهذا الموقف العملى الصارح كان راسل العنقرى بطلا لا شت فى بطولته ، إعلاء لفصية تعلو على المصالح الدانية

ونعل هذه الأمثلة كافية لبيان الفرق بين العنقرية والبطولة . أحل قد يجتمعان . ولكنهما ليسا شيئا واحدا على الدوام ، وليسا المتلازمين بالضرورة فى جميع الأحوال .



ويستقل إلى القوة والحجرات والفرق بينهما وبين البطولة التي نعيها
فقول أن احبار إذا جعل قوته وحجراته في خدمة عاياته الخاصة ، لم يكن
بطلا مهي قهر لأقران ولم يقف له أحد في عبقرية قدراته الحربية أو
السلطانية .

أبذكر التاريخ عبقريا في الحرب المع من نابليون ؟ أو بولوس قيصر ؟
نسمى أمثال هذين ابطلا ؟ لقد كانت عبقريتهم وقدراتهم الخارقة في
خدمة مطامعهم ، لا في خدمة قضية تتجاوز هذه المطامع الخاصة فيهم
إذن وبين البطولة سد منيع .

ولكن عبقريا في قيادة المعارك وحك الخطط في مستوى لا يقل عن
هذين ، وهو القائد بليزاربوس ، من قواد الدولة البيزنطية ، أنقد الدولة ،
وأفقد روما نفسها من الرابرة أكثر من مرة . وبعد كل مرة من هذه المرات
كان الامبراطور العاقر الجاهل اللثيم يلقى به في عبايات السجون ، إلى
أن تدغم الخطوب ويبدو واضحاً أنه لا مفر من انحلال الدولة وصباها أمام
أعدائهم ها أو هناك ، فيحرقه الامبراطور من سجنه ويولي القيادة
ويعلم بليزاربوس أنه سيعدر به بعد أن ينتهي ماربه منه ، ولكنه يأبى أن
يجول السلطة التي في يده إلى خنجر في صدر الامبراطور بشق عصا الطاعة
عليه بعد أن يحرر النصر الذي كان ميثوساً منه ، وكأنه حلم من الأحلام
ويقول لمن يراوده على ذلك من حلفائه :

- سيمى في يدي أداة لخدمة الدولة والإيمان ، لا لخدمة مآربي أو حماية
مكاسبي ، أو صيانة حياتي

ه هو بطل غير هاز للفرص ، ولا راكب للموحة ، إنما هو حامى
قضية أو مدأ ، حيث يعجز غيره عن حمايته ، بل حيث بطبعه سواء يفقده
هو فهو يغشى الوغى ويعف عند المغم . وليس يغشى الوغى فحسب ،
بل يقب موارين الوغى من الهزيمة الماحقة إلى النصر الباهر المؤزر ، وهو
يتوقع في كل مرة جزاء سنهار . . .

ومن ثمة ، فمقتراً كتب « روبرت جريفر » عنه ، نجد مثلاً :
عجب عجب في عظمة سقوطه في محبة الغشبية في نفس من
منه من عظمة صلاب المعية

هذه حصة حقيقته . التي تنكر الذات في سلس التسمة عبد ،
القضية الكبرى ، وتدفع لحدث وإعاده في أوقات الخطر والمنحة . ثم
يعتبر عن لادده من بطونهم ، هي ذات ذات من جوهر سقوطه لأه
هي التي ترفع قدره بطل أخرفه في مستوى سقوطه ولا يتركها تحط
درك التسع التي كل همها لطفر جريسه

هذه الخاصة الحديثة هي التي جعلت صاحب قوة روحية حرفة من
دلت المقدم جريفر على تحول أي بطل يوم كـ . من صوريه عافه
التاريخ ، ويظهر للهند باستقلالها ، ثم يرفض مقاليد الحكم التي سعت
إليه .

هذه الخاصة حقيقته هي التي تدور حول البطل ذو القدرات
العممة بصفته . في تصحي أو وق ، قد يستظل سلطانه ويعبر بالمفاس
يرسمي مكانه . ولكنه في النهاية وعند سلس السح أو بحر الضباب . وأمثال
هؤلاء « الأعداء » هم « أبطال معلوبون » حنف . بحيث لو حلت هذه
خاصة حقيقته بحول محل تأنيته بصدرو بطلاً ولو حلت لأمانة
والدنية محل بحدو لأبطال حقيقته لصدرو أوعدا

فم هو الفرق خمسة من حيث التكوين بين « البطل » و « الأعداء »
- وما أكثر الأعداء بين محفل مهم تاريخ البشر -

مرف حاسه في تكوين أن البطل المظنوع ، كاشعر المظنوع ،
مصنوع على الولاء والانتفاء لمعنى أو قيمة تتجاوز ذاته ومارها الخاصة
نما من ليس فيه هذا الميل الطبيعي للولاء والانتفاء - أيا كانت قدراته - فهو

وغيره من سجاج يبرز من القصره كى بعدو قاطع طريق
حصنة . طاعة سجع به لاسوق في المحافل والمواكب
وكن شعور عريق بالولاء والاسم لا يكفى وحده لا
ول كان - ثم راب - لا وجود لسطوته بدون هذا الشعور

في كثير من شعور بالولاء والاسم القيمة له معنى بعد
لهم عند مدحهم لخطوب ونطق المنح هذه القيمة
لا بعد - حمية لكافة كى هموا حمية ومصرية . ولم مائة
لنصل فيه الذى شعور هذه الحمية تأكله نسبة هبها من القدرة
للمجده والهداء إن لزم الهداء أما الاحرار فقد تعو
أو الحول . أو خيلة . فيكتفون بالعاطفة دون العمل وقد
بعدم خصم عن نفسه على سبل نفسه . وسكون بأس
حمية لهم . ثم لنصل فهذه هى بتصدى وسجدي

فالمدة . والولاء للقيمة التى تعو فوق يارح لدار
وحمية لصادق عند اشتداد الأس . هى عناصر لسطوته
لنصل هذه خصصه فيه يصح مضرب مثل . لأنه
تدب نفس الى الاقتداء به ولكن لنصل فى نأفت نفسه
به خصائص موحية تثير طبعه عن سواء من نشر وهو لا
عن لسطوته . بل يسحره هذه الأعمال . وقد يكون طبعه
وتوفيقه واتيانه بالاعاجيب .

كون جهد
ب طبعه الخاص هو « لادة » كى سجد بها عمله
طوبى بعدو به فوق دته لغيرة القصة تنى بدس بالولاء
بلكن ليست كن تصرفات النصل بصورة من هذا النصل
صاء طبعه فى عمل من الأعمال . بحيث لا يعو به فو

ومبوه الخاصة . هـ لا يصلح هذا المسلك ان يكون امثـل من هو مـ .
لرجل . أى مسك الفرد المعين دى الطبع المعين . ولا يكون حبشه من
شواهد البطولة وملاعـها . .

وعمر من الحظـب كان رجلا ذا طبع متميز ، وكان فضلا مصوغا .
وسجد فى الكثير من أعماله ما هو بطونى ولا مرء . لكن حذار أن يجعد
هذا يقتضى به . فحاصل كل أعماله بطولات . بل سجد منها ولا شـت
ما مصدره طبع الرجل ، لا شـيمة الطل ، أو مضرب امثـل . .

وها قد ان لنا أن يقتضى لمحات البطولة وبوارقها فى عمر ، وأن ترد
ما ليس كذلك إلى مصدره من طبع عمر الرجل ، لا عمر المثل .

عملاق جاهلی من بنی عدی

أي الصبان كان عمر من الخطاب ؟

أي فتى مشترك في تحديد شخصيته تكوينان ، أو تأثيران أحدهما تكوينه الحسدى وما ركب فيه من قدرات وميول فطرية ، والآخر تكوينه البيئى ، وما أثرت به ظروفه الاجتماعية في تشكيل هذه الطيبة الفطرية ، بنفوية جانب منها . وكفى جانب آخر أو مصادرتة أو قمعه بعض الشيء أو كل الشيء ، فيتمحص هذا التفاعل بين ما هو فطرى وما هو مكتسب عن كيان محدد السمات .

وبدأ بالخصائص التى نلتصق بداته وتوسع من تكوينه الحسدى وميوله ومزاجه الفطريين أساسا ، فإذا نحن أمام فتى مفرط الطول ، فاره البدن ، قوى السية قوة تفوق المألوف وتلمت السطر كما يلمته طولله النادر ، حتى قيل أنه كان يمشى بين أقرانه ، فكأنه راكب وهم مشاة ! وفيه عنف وخشونة واندفع إلى العصب ، وسرعة بديهة ، ونفاد فراسة وطول ساقيه وقوته الحيوية ولعصبية كان واسع الخطو لا يلاحقه السائرون معه ، فلا نكون لهم خيبة إلا السير في أثره ، كأنهم في ركابه

والآن سأل عن البيئة التى شيد بها هذا الفتى العملاق العصبوب القوى البأس ، وإلى أى حد شاركت في تنمية هذه العناصر من تكوينه ، وإلى أى حد كفت بعضها أو عدلت من مساره ، حتى صارت له أنماط سلوكية مستقرة لاصقة بشخصيته ؟

به فني عيسى فرشى شأى مكة ، موطن قريش ، التي كانت
تص - هـ كعاد الآل من شتى أنحاء الحريرة ، في مواسم الحج والتجارة
مكة قريش في ذلك العهد كانت بطون وعشائر مائة ليست مائة مائة
في عهد وجه واسترف واشراء فمن أي لظهور كان عمر ؟

من بنى على بن كعب !

وسمى على من لظهور ذات مكة والسمعة في قريش ، ولكنهم
لا يتبينون شيئا من ماضي بكرى في انقيبه ثم فقد استمر مده
المضي من السدة والسداة واللاء وما إلى ذلك هو هشم ، وسو أمه ،
وسمى بحريه ثم هم لا يملكون ما يعوضهم عن ماضي العيب ثروة
صانده ولكنهم مع هذ من دوى سوحاهة ، في نصف لثاني إن حار
هذا التعبير الحديث .

والعهد في القبائل - ولا سيما رمن الجاهلية - أن تنافس البطون
وعشائر دخل لفيلة الواحد نافذ عنها صاريه فمشت عشرة بنى
على - في زمن والد عمر بن الخطاب - أن أحترت على خلاء عن مدي
لتي كانت تحتل موقعا ممتازا بين أراض مكة ، والبروج إلى موضع بعد عن
الأف كس المرموقة ، ليقوموا في حوار بنى منهم وبذلك هبطت مكنتهم
دوى هبوطها ، بسب قنة عددهم وقلة أموهم ولم بنى هم من
لوحده إلا طر محمد قديم وسب عريق ، وليست هم عدة بين العشائر
وسطون إلا الأعداء بكرمه بنى بشنوبها رمة رفة الخال ، فريد
ذلك من حساسيتهم وشعورهم بانقصه والعن والنفس

ومن شأى هذه المضاعف أن يوحج في أصحاب حدة طبع ، والأف ،
وحمية ولكن قله ما تحت يدهم من حور والصور والعدد والعدد يوحج
هم إلى التحامل على النفس ، وإثار صيدة المكاة المهددة ما وسعهم ذلك
بالوقار والحكمة والرزانة .

ولذا نجد بى عدى سدهم قومهم من قريش لمجالس التحكيم ،
ووفود المفاوضة ، أو « السفارة » ، وهى بهام نصفى عليهم ما يعوصهم
عن الحرمان من المناصب الكبرى فى الدين والحرب والاقتصاد .

مكاسة فى الصف الثانى كما قلنا ، ولكن اصحابها يقبلونها على
مصص . ويرحب أى فرد منهم بالمجال الذى يتيح له التبريز بكفاءته أو
قدراته الشخصية ما وجد الى ذلك سيلا ، ليخترق حاجر الفاقة والخمول
النسبى الذى صرته المنافسات القبلية على رهطه ، ولينجو من ذلك التوتر
الحاد بين الكبرياء والبخس .

والآن سأل . ماذا يكون من تفعل تكوين عمر البدنى والنفسى ،
مع هذه البيئة الاجتماعية والنفسية ؟

الفنى عملاق فاره حارق القوة وهذه كلها عناصر تجعل احساسه
مضاعفا . بوطاة التوتر بين الكبرياء والحرص . فلا عجب أن يجمع تكوينه
اخراق للعادة هذا الى ان يجد متنفسا لهذا التوتر الذى يضغط على نفسه

بعض هذا انفس يتبعه له المجتمع القرشى الجاهلى ، وهو مهام
السفارة والتحكيم . ولكنه لا يتبعه له بصفة خاصة ، بل لأى فتى فى مثل
نسبه من بى عدى . ومن الطبيعى وهو متنفس عام غير خاص أنه
لا يرضى كل الارضاء فتى شديد التفرد فى صفاته مثل عمر .

ومن ثم راح عمر ينشد لنفسه المتفرد الذى لا يتاح لأى فرد
اخر قومه ، وهو حبات المصارعة ومبارياتها . فغدا مصارعا مرموقا متفوقا ،
لا يثبت له خصم . .

وها هنا يحس أن يقف قليلا عند هذا التفوق الخارق فى القوة البدنية
الذى انصرف إلى حبات المصارعة .

فلو كان صاحب هذه القوة الخارقة التى لا يقف امامها أحد خاليا من
المطرة الخلقية ، لسلط المسلك الذى يعزى الكثيرين من اقوياء البنية ،

وعدا معتدب يستثمر قوته الخارقة في الارهاب وانتزاع الأناوات ، أو لعدا وضع صديق مثل كثيرين من صعلبك العرب أي لعداء وعداء ولكنه لم يب من قوته لا في مباريات المصارعة العنيفة التي يشهدها الناس ، وليس في أي نوع من ألوان العيلة أو العدر أو الاستغلال لشخصي الرخيص .

ما كان يسر أن يكون عمر وغدا ادن ، لولا أنه لم يكن طبعه وعدا . ومعنى هذا انه كان ذا طمع يأبى له هذا الاستدال الخلقى ، مع ما فيه من عراء مدي ونصي لدوى اليأس الحارق فلاند أن تكونه الحيوى الخارق لم يكن مصدرا لطاقة الحيوية الحسنة فحسب ، بل كان الى جوار هذه لصفة ما يحكمها ويحول دون تدفقها في تلك المسارات المتدلة ، وهي مسارات طبيعية جدا الالدى من لديه قوى داخلية يحمية تقاوم اعراءها الشديد .

ومن هاهنا نصنع يدب على « الفطرة الخلقية » التي في تكوين عمرس الخطاب الفنى الحاهلى لقرشى العملاق وهي فطرة تأنف لصاحبها ان يتبدل حروته أو يتاجر به أو يفقات أو أن يستغله فيها لا يليق بالفنى الكريم الاحساب والانساب .

ومن طبيعة هذه « الفطرة الخلقية » ان يكون لها انتهاء وولاء لقيمة عليها تتجاوز الذات ، أي تعلق سلوك صاحبها عن الانصراف كل الانصراف الى لذاته وبوارعه الذاتية الحيوية ، التي لها بظائر عند سائر الحيوان ، بل تجعل له حدودا لا يتعداها ، ولقاء هذه القيمة العيب

ومادام الامر كذلك ، فقد حق لنا أن نسأل

ومادا عسى أن تكون هذه القمة العلي في الحاهلية ؟

لامداهب فسمية ولا ديانة سماوية فأقصى قمة عينا متاحة للفنى القرشى الحاهلى هي مجموعة تعاليد القيدة التي تقوى عليها مكانتها

بين القسائل ، من عاداتها أو اصنامها ، وشعائرها ، والاحلاق أو الابهر
السلوكية الموروثة ، التي بها تزهو وتنهى وتدحر القسائل .

وإذا أردت لفنى الجاهلى عموما نمط مرموقا لم يحد صورة أوضح
ولا أقرب مما جاء فى معلقة طرفة

ولولا ثلاث هن من عيشة الفنى
وحدك لم أحصل منى فام عودى
ومنهر سقى العادلات شرية
كملت منى ما نعل ناء تورد
وكرى اذا ردى لمصاف تحيا
كسبد العصى سهنه امثورد
وتفصر يوم الدحن ، والدحن معحب
سهكة تحت صراف المعمد

ولا يروعك هذا الشعر الجاهلى أبى الفرى ، لكريمه ، فى بقوله طرفة
أنه لا بأسى عن الموت نولا ثلاثة أمور هن كل ما يعنى لفنى لكريم
بالحياة وهى معاقرة الخمر حيدة ، والكبر ونمر لصره حار والمسعين
ه . ونقصير النهار بمصاحفة النساء

اخمر والحرب والحسن ! هـ هو ما تخلو به الحية ويعنو قدرها
ويحيط بهذه لعناصر الثلاثة اطار نفسى ملازم هذه « العيشة » الجاهلية ،
قوامه العنصرية والاسراف فى رضاء لاهواء وتأكد اندت وتدلبيها

ولم يكن زمان قسوة عمر وشابه زمان حرب وكر وفر ، فم تكن هناك
إذن قصبة عليا يوحه إليها عمر طمعه لمنمى فى ساحات البصاى فلم تنق
أمامه إذا إلا المنهصات المتاحة فى مجل السلم ، وهى الاسراف فى الخمر .
أو الاغراق فى اتیان النساء بالاكثار من الزواج وكلاهما مصرف قوى لطاقة

لعملاق الحارفة ، فهي أيضا كالمصارعة مباريات في الشراب ومصاحبة
الفواني والتنافس عليهن .

هو اذن بطل مطسوع . ولكنه لا يجد القضية التي تتجلى فيها روح
البطولة ، من الولاء وبصرة القيمة العليا . فذلك الفتى الجاهل - في زمن
السمة والامس - يشعر أن شرف القبيلة مصان لا ينهدده خطر من أى نوع
فالمسائل كلها تحل قريشا . وهو لا يعرف قيمة أعز من شرف القبيلة
يكون لها ولاؤه واستاؤه ، ويمارس في إعلانها روح بطولته

ول ما في جسمه من فراهة ، وما في تكوينه الدموي الدري من حوج .
يحدد راحة في تلك المدل من الخمر والسمة . ونحن نعلم أنه اعترافه كان
نخب الخمر على الأقل . وكأنه يتحدى الأقران ويسرهم في هذا الميدان .
منهم سرهم في حليلة المصارعة ، أو مصارع ساق الحبل

ويتبع أن تنسب هنا إلى أن سميت الطبع والتكوين والميول عاصير في
شخصية لرحل ، وأنه فيها بعد . وقد حره الاسلام المؤيدات

● بعده أقنع عن الخمر لأنه لم يعد من ذلك مقر ، وأما المرأة ، فلا
هسة في الاسلام . الأرواح إذن صابح ، والتعدد المحدود من صابح . ومن
نصمى . تطل الرغبة في السمة ملازمة عمر ارحل بعد اسلامه .
حدود تشرح . فلا بد أن يعبر الرغبة أو الميل الطبيعي في تكوين لرحل ،
من كان كل مهابك انه يصعب له اسخوه التي لا يتجاوزها في ممارسة هذه
الرغبة أو الميل الطبيعي .



وتحذر من ألا يحتتم هذا الفصل قبل الإشارة إلى ملامح أخرى من
شخصية عمر . فهو إلى جانب مهادد شديد الاعداد نفسه . مع يقظة
في الخس والدهن تصارع فراهة سمة . ومع فراهة صائبة تتجاوز طوقه
لمحيطين به كمن يحاور حصونه لمسة حقونهم

واعتداده بنفسه ، وبرجولته ، مقترن أيضا بأنه لا يعتمد كثيرا بالنساء ، وان رعب فيهن . فهن في احساسه « أدوات » أو « دمي » أو « وسائل » قد تكون لادة ، وقد تكون نافعة ، وقد تكون إليها حاجة ، ولكنها ليست ذات بال ، ولا يعتد بها رأى ، بل لا تسمع لها كلمة مخلوقات هن في نظره من الدرجة الثانية .

ولم يكن عمر في هذا شذوذا خارجا عن المؤلف بين رجال زمنه ، ولا كان ذلك علامة على قصور أو حمود في التصور والتفكير . فهذا هو « المعلم الأول » أرسطو لا يجعل للمرأة - ساعه الله - أكثر مما جعله للرجال في الجاهلية عموما ، ولا سيما عمر .

وتكوين عمر الرجل لا يسمح له أن يكون « عاشقا » متيها هائما . فهو لا اعتداده بنفسه يستخدم المرأة ، ولكنه لا يترك لها رمام نفسه ، ومقاييد له . ولكنه قادر على الود ، لمن يودهم ويقدروهم من الرجال ، إلا أنه ود من يملك مشاعره ورشده وأحكامه تمام الامتلاك ، فليس لانسان مهما أحبه عمر أن يسيه يقظة دمه وصدقه وبراهته في وزن الأمور

ومن كان هذ شأنه لا يميل به الود ، ولا ينجح به البعض إلى سبيل الحكم الصائب . فهو يصنع عقله ورأيه فوق من يحب ومن يكره . وهذه بكرة أخرى للمفطرة الخلقية التي تعصم من حذع النفس أو انسياقها مع الأهواء .

انه المصارع المطبوع ، والبطل المصروع ، الذي لا يسمح له تكوينه أن يعنه أحد ، بقوة بدن ، أو قوة المود العاطفي . فهو دائم البطل الذي يملث في بده جميع الأرملة ، وله لكلمه لعب ، ولا يرحى رمامه لأحد .

ومن ثم استقلاله العقلي ، الذي هو سمة لا يمكن أن يخلو منها رجل شديد الاعتداد بنفسه ، يأنى أن يحدعه محاذع ، فعقله الباقد الساقط دائم البقعة . حتى لا يعنه قاهر في بزأل قوة بدن ، أو نداد فضة

وسيحط فيه هذه السمات ، وآثارها ، عندما يتاح فطرة البطولة فيه
أن تجد مجالها الطبيعي .

ولكن مسجد أيضا من سمات طبعه أنه شديد الحمية والغيرة ، والغيرة
من طاع ذوى الحدة والحمية واتقاد الطبع والاعتداد بالنفس إذ يلحق
بالاعتداد بالنفس حماية مافى الحوزة ، واشرف مافى الحوزة العرص
والسمعة .

ومع حدة الطبع توجد لدى قوى الحارق القوة غلطة وصرحة
لا تعرف المداراة ، لأنه لا يجد أمامه أحدا يحوجه إلى تكلف المداراة .

ولكن فى مقابل هذا أيضا صفة نابعة من فطرته الخلقية ، هى محاسبة
النفس ، حيث لا يجزؤ أحد على محاسبته وقد رأينا أن الفطرة الخلقية هى
« الشعرة » التى تفرق بين البطل والوعد . وهذه الفطرة الخلقية هى التى
تقوم بالمراقبة وه النقد الداتى ، لدى ذلك الرجل الذى لا يجسر على
مساءته وتحدى جبروته وعنجهيته أحد . .

الفجر الكاذب !

كان عمر اذن بطلا بلا قضية ، مصارعاً حمار القوة شديد الولع بالخمر . . فلم تكن أمامه قيمة أعلى من هيبة القبيلة وشرفها ، والقبيلة لم تكن في خطر يتهددها . وكل ما هناك ان افرادا من العرب ، ومن قريش ، بل وبعضهم من بنى عدى - مثل ابن عمه زيد بن عمرو بن نفيل ، عافت نفوسهم عادة الأوثان . . . فالتمسوا عبادة إله واحد ، وتنصروا نفر منهم واعتزلوا حياة القبيلة نجاة بأنفسهم من هذا الذى أحسوه تعقنا واسفاها وضلالا .

وكان هؤلاء فى نظر القبيلة - وفى نظر عمر بن الخطاب من باب أولى - خارجين على القاموس الموروث والشرف القومى أو القبلى . لذا كان عمر من أشد الناس عداوة هؤلاء ونكاية لهم وتنكيلا بهم . ولكنهم ما كانوا لقلبتهم وتفرقهم يشكلون خطرا بquam له وزن ، بل كل وزهم اهم « خارجون » على النظام العام للقبيلة ، لا يستنفرون الحمية كل الاستنفار ، بل قصارى الامر أن يهشوا كما يهش الذباب دون كبير اكتراث . ولست اقول ان هذه كانت حقيقتهم ، بل اقول ان هذا كان خليقا ان يكون نظر القوم اليهم . فهم لا يبشرون بدينهم ، ولا يكونون جبهة تدعو الى ترك عبادة اوثان القبيلة . فلا خطر منهم يحس ، ولا وزن لهم يقام ، وانما هى النعمة والعقاب لذى يستحقه كل خارج على « النظام العام » .

ثم ظهر فجأة حدث من نوع مختلف . ظهر رجل من اشرف بيت فى

قريش ، معروف بالصدق والأمانة والرزانة والوداعة ، قال إن الله أوحى إليه بدين جديد ، وأمره أن يدعو الناس إليه ، وأن يبذلوا عبادة أوثان لقبيدة . رحل لا يتحه في صلاته الى الكعبة . بل الى بيت المقدس .
واحد اناس من مكة يلتفون حوله وينعون دعوته .

هذا اذن وضع مختلف عن حال أولئك النفر عن شدوا من قبل عن « النظام العام » من غير أن يسعوا الى قلبه . اما هذه الدعوة الحديدية فهي في نظره ونظر امثاله دعوة الى قلب « النظام العام » الذي يباط به شرف القبيلة .

بل ان الكعبة التي يحج اليها العرب وتصرب لها أكباد الإبل من كل ارجاء الجزيرة العربية . ومنها تستمد قريش شرفها ومكانتها الرفيعة بين قبائل العرب جميعا ، هذه الكعبة مهددة بهذه الدعوة الحديدية ، ونزواها تحل مكانة قريش ، وتذهب ريحها . . . و . . .

ها هنا إذن قصبة بدت لعمر بن الخطاب شاحدة لهمة مستنيرة لحميته ، ولروح الطولة فيه ، كي ينرى للدفاع عن شرف القبيلة ، وهو عنده « القيمة العليا » التي لا يعرف يومئذ قيمة اعلى منها في الوجود .

ولا غرابة اذن ان يكون عمر الحبار . عمر النبل المطوع ، من أشد لباس عداوة لمحمد ودعوة محمد ، التي يسميها دين الاسلام .

وحدير بناها أن تنته الى تساؤل ينخطر بالذهن :

- أكانت عبادة الاصنام أهلا لاستشارة كل هذه الحمية في نفس عمر بن خطاب ، الذي كان معتادا بقطته وفروسته ويقظة حسه ، بحيث نصب كل جبرونه على أتباع محمد ، وهم اس صعاء ، فيهم النساء ولا حداث والشيوخ ، وكلهم مسلمون لا من أهل البغي والعدوان ؟

أكبر الظن أن الأمر لم يكن بهذه الصورة فحتمه لا يمكن ان يحصى غيبه ان هذه الاصنام حجارة صماء لا تضر ولا تنفع ليس هو الذي كان

بعد هذه الحصة فربما يدفع عنه الادعاء في هذه الحالة
بأنه لا بد من وجود قدر من الضرر. محل حصول نصيب من
بعض الحصة التي كانت لا حصة من نصيبه إلا في ميدان نسبي و
حسب منسارعة ومعاودة حصره، ما استطاع من ذلك مساعداً

بأنه ثبت عرقه بأنه جهة من قبله بدليله منسارعة، وأنه في هذه
الحال حديد، محل سلبه بأشياء محمودة، بدليل منسارعة أنفسهم
المسلمين.

فمن حال منسارعة وفي جميع الأحوال التي كان نصيبه فيها يتوزع
فيستحق من أمومه عند انقضاء، كان يشعر بأنه له حصصه عند شهره،
فلم تقم له بعدها قائمة أم هؤلاء، لخصوم حديد، في تضعف شوكتهم
أمومه، ولكنه مهم بنقص سهم بطل فيه شيء، لا ينهيه، وإن تضعفت
أقسامهم تحت وطأة حروبه شيء، بطل سلاحه، ولا يستطيع هو أن
يقفه، أو تفصل إليه يده الباطنة فكأنه في حلة بصراع فيها أضعاف
لا ترون، ولا تمس، وتبين به في شهره من سبيل

هؤلاء، انصطفى لهم «روح» مصممة في ما يؤمن به، حتى إهم
مسعدون ما يتوزع سهم من عدل، وبذلك بعد نصيبه حديد من
غير أوله حار غلبه، يسوي به، على حديته بوسعه حركات مقبلة
وبذلك يقرب ولا يقرب، أن يوجه إليه فقد كان يقفده، حصصه
يستحق، رده تحت وطأة حروبه، فكأنه في ذلك فصل حصصه
هؤلاء، فهو يستعده حصره، هاهنا، ولا يستطيعون به رد ولا دفع، ولكن
لأمره في حساسه، لا ينهي عنه هذا الحد من حروبه وفيه حسنة، حروب
والطول.

حال الفصل في هؤلاء، انصطفى شيء، فإنه لا يستحق ما ترون به سهم
من محرم، ولا يستحق على الترتيب شيء يستحق مقصود وجب شيء حساسه

« انه لا يفي عيوبهم اهمه هم انصب نخسول مهد الشىء الذى لا يهد
ولا تفصل انه انصرت وانصرت والشئام . ولا تعرف منه لدماء

الحى مهم علمون . كم بعد هو ان هم تدك القوة لعمصه عبدة الشىء
لا يقص بها حده وه لعمص من ثم يردد عبطه . ولا يستصعب لتعوى
عن هذ الموضع . لندى تعده مقهور وهو الظاهر . وللمصروع العاخرى
حسب سريره وهم لمصر وعون فى ظاهر الامر

ولكن مثله لا يمكن أن يحدع نفسه . بل لاندنه من اللعد إلى حقيقة
هد و اصلاح السرى « الذى يس له بمتنه سبق عهد . وهو العملاق
الخبر لصل افراس بمرنة لافى . ولش لم يحس أحد هذ الموضع
المفوت مد غنى للمسحيرية . فلا مفر نه هو من لاحتاس بوطنه على
عجهته وحرته . وكأله يصر كثره فى القرب ا

ولكن عند اسجل بمسلمين . عسى أن تتغير الحال . ولكن احذر
بأنى لا يندرد « ولكن عند من تعود انصر فى جميع المواقف وموقع
مدفعه فى سجن قصى حرته عند هذ العدو العبد غير المعهود وقى
كل مرة لحد اسبحه هى هى عيبها

وعلى مند هذ احتمالات . يرداد عدد مسلمين بادراد . فلا يكاد
يمضى سوط من غير ان يسمع مع لانس شخص اخر فى مكة عنون
دن محمد بن عبد الله . ويردد لير اخفى . تير العقل لادق واخص
لنص تعده فى ذلك « لصلاح السرى « حديد . لندى لا يتأثر أصحابه
شئى . بل منهم من يمدون . « دافضى الأمر - نفوس رصه مرصه .
ثمة منهم بالعمه لندى وعدهم به هذ الندى

ومن شأن من تركينه لنفسه كثر كنه عمر . أن يرداد لير الظاهر
سيرة مقدمه لير لاطن الذى يرداد . حاجا وشدة داخل سريره فكل
شده فى لير لحد يحاول السلوك الظاهر أن يعادها « مريد من لعف

في راحه مصدر ، عسى أن يبعث نأثرها منبو المربع ، لدى بصير نديه
بـ ، حروته ، وهو خير عند حروته ، يرى فيه كبر دته كنه

دفع شدة عمر أفضاه ، فيحيل إليه أنه لو قتل محمد ، صاحب هذه
دعوة جديدة . لأزل من الوجود مصدر ذلك السلاح السري . سلاح
السر ، لدى يراه هؤلاء « المقتولون » القيمة علي التي تعود على كل قيمة
معمدة . وهي قيمة تراث القسمة وتبرفها ، وهي بذلك حقيقة أن يوهب
لها الحياة .

أجل ، ليقتل محمدا ...

ويش ليعلم أن سي هاشم يمعونه ، وأن لبارزين من أصحابه عشائر
وقتل لن تسكت على اهدار دمهم . ونحن منعة محمد أقوى المقات ،
مكة سي هاشم المعتدة ، فس يركوه يمشي على الأرض حين هو قتل
محمدا .

يعلو عمر هذا ، ولكن روح لصوره ، تدفعه إلى التصدي لنحضر
وتحده ، فإن لطفل مضوح بهجم حيث نحمه سائر الناس من حوله
سكون دن فداء للقيمة علي التي شأ على تقديسها ، لبطمش حاش
فريش وتستب مكنتها كم كانت

هذا هو حاضر أمره وفكره ، ولكن في سربرته مقل ذلك الدفع لعيد
ببر يرداد قوة ومراسا وحدث عفته ووجدته . فكم ظما وحن حقد على
محمد وديسه . ظما وحن في أعمره استهول ذلك سلاح السري لدى
لا يحدى معه حروب . ولا تفصل إليه بد سوء هذا سلاح السري لدى
يرداد خصمه في وحنه ، ويسته إلى ما لا يبرن بالعقيدة لإهبة من مستوي
في القيمة أعلى وأسمى بمراحل من قيمة القسمة وتراثها . ويدعوه . في حفاء
ولكن في إخراج لا موارد فيه ولا طاقة له سحاهه . أن الأحدره وبحروته

ع . هـ . سلاح الذي حمته هؤلاء ، نصعد ، ونجعل هذه
لا نعد قصته التي تلي بطلانية مصوغه

وهكذا كان ما يسمى على نفس نكبو قصدي على قصده في
قصه ، عندما كان الذي يمس - وفي في ظاهره - به ماض في مسار وجوده
لا تدبل له ، ونعزمه معقود على مصي فيه إلى عاية مده
وبعد موهي ليس . هو الفجر يردب الذي حده صادقا سحاب
ينسج مدان بفجر صادق

هـ هي قصبة هي حاف قصبة احده بطونه ، وهي قصبة شرف
فرض حافل . ثم جمع مده قصبة صحبه قصبة ليس أحق منها بحب
النظر المصوغ ، التي تصف في قوة الروح الذي لا يفهم ، فهو ليدل لده
وحبوة حارة وحمية هي لا ترضى نفسها عن التحدى والقصدي
بديلا .

ولم بعد هناك ، لا حقبة واحدة ، يردد فيها أحد قصدي المكفون
- وهم السعور القاهر والشعور الناطق - منفلا حديد من انقوه ، التي
تقتب النورين ، ومحوي لئير لا قوى النور لا ضعف ، ونسهي إلى لاند
ما كان بينهما من تكافؤ .

وهيهات أن يرداد مع هذا المثقال من القوة الاضافية تيار العدوان
الحاهلي لدى عمر ، لأن التيار الآخر لم ترده المواقع إلا قوة ، فمدده روحي
لا يعرف هزيمة ، بل بطل دائما ساخر من حרות ذلك العملاق العبيد !
بما هي موقعة أخرى بين عمر الحاهلي والعاشم وبين ذلك الروح ،
يتصر فيها الروح ، فيكون هذا النصر القشة التي تقصم ظهر العبير
وعندئذ ينسج الفجر الصادق !

البطل يجد القضية

الفجر الصادق

ويرجع إلى سيرة ابن هشام ، تحت عنوان « اسلام عمر » نقلنا عن
« ابن اسحق » .

« كان اسلام عمر في بلعي أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند
سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (فهو ابن عمها زيد بن عمرو) كانت قد
أسلمت وأسلم معها سعيد بن زيد . وهما يستحقان باسلامهما من عمر
وكان نعيم بن عبد الله النخعي (وهو رجل من قومه بني عدى بن كعب)
قد أسلم ، وكان ايضا يستخفى باسلامه فرفا من قومه . وكان حباب بن
الأرت يحنف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن . فخرج عمر يوم
منوشحاً سبعة يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من اصحابه قد ذكروا له انهم قد
اجتمعوا في بيت عبد الصدف . وهم قريب من اربعين رجلاً بين رجال
وساء . وفيهم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وابو بكر بن أبي قحافة ، وابن
عمه علي بن أبي طالب واخرون من المسلمين رضى الله عنهم ممن كان قام
مع رسول الله ﷺ بمكة . ولم يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة . فلقى
عمر بن الخطاب نعيم بن عبد الله . فقال له : « ابن تريد يا عمر ؟ »
فقال « أريد محمداً هذا الصابي » . الذي فرق أمر قريش وسعه أحلامها
وعاد ديبها وسب أهلكها ، فأقبله ! »

وهنا لا يفوتنا ما في هذه الصورة الدرامية من ارزاز لسمتي الاندفاع
واصراراً في السطل المطبوع ، الذي لا يعتمد الى الخيلة ، ولا يحتال على

من عينة وحفلا . من هو يظهر به هو مقدم عليه . لأنه مؤمن به . ولأنه
يصفه بكونه شجاع لا يبالى بعرض المعترضين

ولكن ينبغي ألا يعيب عن أدهاننا أيضا ما سطرناه من حال و تكافؤ
الصددين . . بين ظهر وعيه وسلوكه . وبين صغط سريره الباطنة . التي
رأى بهذا الاندفاع أن يحسمه هــ « التكفؤ » أو « الذرح » بين الصدين
ثم يرجع نفسه . بانفراج من امر محمد بقتله . وحقته الصهرية في هذا أنه
سب ذلك التفرقة في امر فريش . وما نسب فيه لأتباعه لمقتولين به من
عدا والتشريد . فهؤلاء « الصعفاء » في رأيه صحاب لدلت الداعية
بندس الحديد . والصل لا يلبق به أن يصب جبرونه على الصعفاء
مخدوعين وحدهم . بل الذي يلبق به هو التصدي لمصدر هــ البلاء في
بطره .

ويعود لي من اسحق . برواية ابن هشام

فقال له نعيم :

- والله لقد عرفتك نفسك من نفسك . عمر ! أتري مني عند مصاد
- ريك ثماني على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع لي أهل بيتك
فتقيم أمرهم ؟

قال عمر :

- وأى أهل بيتي ؟

قال نعيم :

- حنك واس عمك سعيد بن زيد بن عمرو . وحنك فاطمة بنت
الخطاب فقد والله أسما ونعا محمدا على دينه . فعليث هما ! «

فها هو نعيم اذن قد نقل تأثير ذلك السلاح الذي يورقه ويذهب بصواه
وعيه أمره . إلى داخل ال عمر الأقربين فلم يعد « الأعداء » من

الأعداء بل هم من أدنى الأقربين ، وفي ذلك التحدى له ولقوته
وحروته ، هذا داعى الحروب والحمية الخاهدية يدعوه إلى قطع أرحمه
فلبعد إلى ابن اسحق لرى ماذا صنع .

فرجع عمر عامدا إلى أخته وحتته ، وعندهما حجاب بن الأرت معه
صحيفة فيها سورة « طه » بقرئها إياها . فلما سمعا حسن عمر (وعمر
فوحسن عظيم أينما ذهب ، ولا سيما وهو عاصب) تعبت حجاب بن الأرت
في مدحهم ، أوفى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة
فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين أتى إلى البيت قراءة حجاب
عليها ، فلما دخل قال :

- ما هذه هبمة التي سمعت ؟

قالا له :

- ما سمعت شيئا !

قال :

- بن ! لقد أحررت أنكما ناعتنا محمدا على دينه !

وطش بحتته سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب
لتكلمه عن روحها ، فصرها فشحها . فلما فعل ذلك قالوا له :

- نعم ! لقد أسلمنا وأما بالله ورسوله فاصع ما بدالك !

آه ! إنه التحدى إذن ! « ذلك السلاح السرى » المحير الرهيب
ينجداه مرة أخرى ، لا على لسان الصعفى من عرص الناس ، بل على
لسان أخته وحتته (روح أخته) وابن عمه ! ينجداه على لسانها القاتل له .

- لتضع بنا قوتك الغاشمة ما تشاء ! فحسبنا إيماننا بالله عراء وعوصا

لنا عن كل ما يمكن أن نلاقى من المحنة والعذاب ، بل القتل إن شئت !

هـ مع تكفؤ الصديق عبيته ! ذلك التكافؤ الذي كان عمر ممدوح كفى
عنه حساب وعيه الطاهر واعتقاده الظاهري القديم ، وقد هـد التحدى
حري . لمصاحي ، بصيف اشتد مرحح إلى تيار سريره حيث هـد
ساح سرى الرهيب الذي يلى سلاحه ويبلغى كل حروبه
بفوق أس هـدم . نقلا عن أس أسحو

فلما رأى عمر ما أحبه من الدم دم على ما صبح ، فرعوى !
وقال لأخته . أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتمكم تقرأون أنها ،
الطير ما هـد الذي حـ ، به محمد . وكان عمر كئيبا قارئا (من بين رجال
سدهم أقل من العشرين كاتب في قرش كئيب) فلما قرأ ذلك قالت
أخته :

- إنا نخشاك عليها !

قال :

- لا تخشى شيئا .

وحلف لها بالهتة ليردها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك صمعت في
إسلامه فقالت له :

- يا أحمى إبت بحس ، على شركك . وإبه لا يمسه إلا الصاهر !

فدم عمر وعين فاعصه صحيفته ، وفيها طه فقرأها فدم قرأها
صدرا قال :

- ما أحسن هذا الدلاء وما أكرمه !

فلما سمع ذلك حساب من لايت حرج به فقال

- يا عمر إني والله لأرحو أن يكون الله قد حصت بدعوة سبه ، فبني
سمعته فمن وهو يقول « اللهم إني لأستلم بأني حاكم من هـدم
، عمر من الحقداب ! » والله الله يا عمر !

فقال له عند ذلك عمر :

- فدلني يا حباب على محمد حتى آتبه فأسلم .

فقال له حباب :

- هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه !

والرواية هكذا توهم أن ميل عمر إلى الاسلام كان من تأثير اللحظة وهو في حقيقة أمر لا يسرع فهمه على هذا الوجه السطحي ، بل جاءت هذه اللحظة بمثابة « الدروة » لتأثيرات تراكمية تناهت عن المدى الضيق في سريرة ذلك للعلاق الدود البصيرة ، فأقرت في نفسه المزة تلو المزة ، وفي الموقف تلو الموقف أنه وهو المحارب الذي لا يقوم له أحد ولا يسل ما وراء ظهره على حد تعبير معاصريه ، وهو نفسه أمام « سلاح سري » من نوع حديد وعريب عبيه تماما ، يجعل أضعف خلق بية عصي على هزيمة سطشه من حجارة دوى الناس الشديد ما أشبه بحال اليابان حين برلت قبلتا هيروشيما ، فلم تحدد من الإقرار بتفوق أصحاب هذا السلاح الذي لا يقوم له شيء ، ولا يجدي معه شيء !

وها هو يجرب مرة أخرى موقف العجر ، في الوقت الذي أراد فيه أن ينفضي عن شعوره بدست العجر السحق لكبريائه ، بفعل مصدره « محمد » . ها هو يجد دست السلاح الذي يشعره بالعجز التام منملا في أقرب أهل رحمه إليه ، في شخص أخته ، التي مرادها الشج وتدفق الدم لا تحدي له أن يصنع ما يشاء !

ها هنا إذن انجسم الموقف ، وكانت الفتنة التي قصمت ظهر النعير وليس الفعل للفتنة في حد ذاتها ، بل لما كان قد تركه قلبها فوق ظهر النعير من الأحمال التي وصلت إلى أقصى طاقته . فلم أضيف إلى هذه الأحمال ثقل المنورية في سريرة عمر دست الثقل الحديد ، كانت هذه هي « الضربة القاضية » .

دلا بد ! ليس المحرج قتل محمد ، بل المحرج هو الانضمام بحروته
بن محمد . فهاها قضية إيهان كوي تتحاور قضية القبيلة وتراثها هاها
قصصه لتي تستحق أن توهب ها حياته وتغتشد لها بطولته انظرية

وهكذا حدث الانقلاب في نفس عمر . فزد أشد الناس على
السجين ، وقد بات أشد الناس على أعدائهم . واعتهم في الدود عهم .
وبصرة ما يؤمنون به ويدعون إليه

ويعود إلى ذلك السرد الدرامي الذي بصحفا فيه اس اسحق

فأخذ عمر سيفه وتوشحه !

أجل ، لم يس عمر سيفه ، وكان قد توشحه بعد ليقنل محمدا ، ولو
بدل حياته في سبيل ذلك . ولكنه لا يساه الآن ويتوشحه ، لأنه يريد أن
يحميه في خدمة القيمة العبد التي انفتت نفسه إليها

ثم ماذا بعد يا بن اسحق :

« ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصاحبه ، فصر عليهم الدب »
صرع عليهم الدب ! إنها حركات الطفل العقيمة إذ جاشت نفسه
بعداء أو مودة على السوء ، فلا يحب ، وما عهدوا إلا الشدة في التكيل
هم ، أن يرتفعوا ، وإن جهلوا ، من هو صاحب هد « الصرب » على الدب
لقوم مستخفين عن الناس .

فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فطر من
حمل الدب (أي من شوق في أحشائه) فراه يتوشع السيف ، فرجع إلى
رسول الله ﷺ وهو فرع ! فقال

- يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاط متوشحا لسيف !

فقال حمزة بن عبد المطلب :

- يادون له ، فإن كان جاء يريد حياءاً لدنسه له ، وإن كان جاء
شراً قتلناه بسيفه .

موقف حدير بحبار آخر يقابل حذوته حذوت عمر ، وهو حمرة من
المضب ، ولكنه يخط أحمر من حذوت ، ومن حمية ، موعداً بعد
كفى يفر من بينهم في عاصف شخصيه وسقط الحسوك
ومهم بك من شيء فوجود حمرة كان كدوب لضمائية ، واذن
الرحمن (أى فتح له) وهبط إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في خجوة ، وحده
حجرته (أى موضع شد رده) ويجمع رذائله ، ثم حده - حده شديد
وقال :

- ما جاء بك يا بن الخطايا ؟ والله ما أرى أن تسهى حتى يبرأ الله
بك قارعة !

فقال عمر :

- يا رسول الله ! حيث لأومس - الله ورسوله وما جاء من عند الله
فكم رسول الله ﷺ تكسيرة عرف أهل بيت من أصحاب رسول
الله ﷺ أن عمر قد أسلم وتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكائهم ،
وقد عرفوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع أسلام حمزة ، وعرفوا أنهم يصنعان
رسول الله ﷺ ، ويستصفونهم من عدوهم



وثمة روايت أخرى عن إسلام عمر ، لا يراها تفسر لنا تفسيراً نفسياً
مقبولاً ذلك الانقلاب المفجى ، في نفسية عمر ، من التطرف العنيف في
العداء والتشكيل ، إلى التطرف في الانتصار والحماية

ومهم بك من شيء ، فالنظر هذا قد اهتدى إلى الفصية التي تليق

مستوية . فترضى نصرة الخفية التي قد بها شعرة حتى تفرق بين الوجود
المطبوع والبطل المطبوع .

فما من خير أن معسكر الذي يبنى به هو معسكر لاسيما
عند أي ندم يكون ويمتد به سبيل الروح لا وقع بشر من مسجون
حين نحسب هالك ، إلى مسجون احمد وسعت وحس سعات
، لا عصبه سادات الكونية ، وليس معسكر مدني حتى يجعل لادمي
حيوانا في الوجود ، يعيش ثم يموت . ثم لا يكون بعد ذلك
إلا عدما .

من يكون حمية النصار المصروع في نصرة قضية الكبرى فلن يلاءم
كل في مساوئهم وحدلاهم . وهو حقيق أن يكفر عن ذلك العنق في حرم
الاستمر في تأييده والنصار في سبيلهم

الجباران حمزة وعمر

كانت أن تسعد عن ذلك احدا من بني عبد مصعب ، الذي كان
وجوده في حور مسلمين محبين في دار الارواح صبرا نورا من عظمى حد
مشاركين في ذلك حين - عمر بن حفص - ان كان يسعد عنه فهو من
معدل عمر ، ثم كلاهما حذر على التقى في امور ، وحلاف في مور حوى
من مكونات الشخصية .

حمزة عم محمد بن عبد الله ، فواده هو عبد مصعب ، حد محمد ، وهو
في الوقت نفسه أخوه في يرصاع فقد تروح عبد مصعب من هالة سب
أهيب ، وهي به عم امه ست وهب أم اسي محمد - وقد كان روح عبد
لمصعب من هالة ورواح ابيه عبد الله من امه ست وهب في يوم واحد
فولدت هالة لعبد لمصعب به حمزة ، وولدت قريبتها مه لاسه عبد الله به
محمد .

ثم هو حوه في يرصاع ، فقد أرسعت ثوبه كلا من حمزة ومحمد ، وهو
نظيعة احل في سن متفرد به حد

فحمزة بدر في تدونه لعب من اشرف ارفع في فريش ، وهو سبيل
حد ولعده وكرم امحتد ومن شأن من كان حد وصعه في حاهية أن
يكون شديد الألفة والحمه ، والعشقه

وقد شب حمزة في ورع فده احسد ، معي ، حد منعته في لصيد ،
وحد ، وكل ما يشد في به أهل الحاه ويوحده في فريش لا تحسر أحد

بعدم على شيء بغضه ، ولا نفي على الفور ما برده إلى صوانه من
عصب الخناجع والبطش . فلا عجب أن ترسخ هذه المكانة المصونة في
نفس صاحبها أنه ليس بحاجة إلى تحدى أحد لأثبات قيمته ومكانته ، بل
يكفى جدا أن يرد على بادرة العدوان أو التعدي أو سوء الأدب بالعقاب
الزريع لدى يقدر عليه في السر .

ولألفة مشتركة بين حمرة وعمر - وفراة لجسم وشدة الناس وقوة
بعض سمات مشتركة بينهما نص - ولكن مع اطمئنان حمرة إلى تسليم
ناس بمكانته وحسنه وحمروته أما عمر فينبج عليه ما يجز في نفسه من
حسن بطور فريش لعشيرته بني عدى ومن شأن هذا الشعور بالحسن
و الدوية أن يدعو العملاق الشاب إلى تعويضه بتحدى الناس من
سبطاع ، كي يفرض عليهم ، هسته وقوته ، ليؤسس بذلك لنفسه مكانه
أهم لا سدموم بها له ولا لقومه الأدين

لذا أحوال عمر كان صاحب قنحام وصوله هجامة . أما حمرة فصاحب
صولة مطمئنة ساكنة لا تنهج لعدوة ، بل تنرى ثلرد عليها أشد العف
في بدرت من العداوة بادرة لأنه حار من الشعور بالحسن و الدوية ،
ومن ثم لا يجح إلى التريد في نصرافته على سبيل التعويض واستعراض
القوة . وفيه حلا هذا ، فكلاهما ذو طبع ناري ، ومراح حد لا ينف له
شيء ، إذا ماثار لأى سبب من الأسباب ، ومن اليسير أن بشور لأوهن
لأسباب - وكلاهما كان مشهور بحب الخمر والاسرف فيها ، ومن كان
يسرف حمرة في الخمر مصحوبا بمظاهر سدح والوحدة لى تنبج ناخه
والسبب العريق وقد حفظ الرواة صورة مشهورة هذا السدح وهذا الضع
النارى المحتلم .

وستفت هذا إلى ما روه بن اسحق عن ملايساب اسلام حمرة ، بعد أن
أحطنا بملايساب اسلام عمر . . .

حدثني رجل من أسلم ، كان واعيه ، أن أما جهل من رسول الله ﷺ
عند الصفا ، وده وشتمه ، وبال منه بعض ما يكره من لعب بدينه .

والضعيف لأمه ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ ، ومولاه لعبد الله بن حذعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة في مسكن لها نسمع ذلك . ثم انصرف عنه ، فعمد إلى ناد من قريش عبد الكعبة ، فجلس معهم فلم يبت حمرة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه ، راجع من قصص له . وكان صاحب قصص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قصصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة . وكان إذا فعل هذا لم يمر ناد من قريش الا وقف وسلم وتحدث معهم . وكان أعرفنى في قريش وأشد شكيمة .

فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته قالت له :

- يا أبا عمار لو رأيت ما لقي من أحبك محمد آتيا من أبي لحكم بن هشام . وحده هـ ما حالسا ، فاداه وسه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد !

فاحتمل حمرة العصب فحرج يسعى ولم يقف على أحد ، معدا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به . فلما دخل المسجد نظر إليه حالسا في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع لقوس فصره به فشحه شجة منكرة ، ثم قال :

- اتشتمه وأبا على دبه أقول ما يقول ؟ فرد على إن استطعت !

فقامت رجال من بني محروم إلى حمرة ليصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل عندئذ :

- دعوا آل عمة ، فبى والله قد سست اس أحبه سبا قبيحا

وتنه حمرة رضى الله عنه على اسلامه ، وعلى ما ناع عليه رسول الله ﷺ من فبه . فلما أسلم حمرة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عر وامتع ، وأن حمرة سيمعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا يسون منه

سنت رواية ابن اسحق ، التي نقلها ابن هشام . . . ومها يتصح ان
« عرة » كانت أهم صفات حمزة ، وأنه كان أعز فتى في قريش ، وأن قوة
الشكيمة كانت تساعد هذه العرة ، فتتمدها بالقوة « الرادعة » و « المانعة »
ويكتب ليست القوة المتهممة أو المادنة بالشر

عصب حمزة لعزته وعرة قومه ، حين تهجم فظت مافس من عشيرة
مافسة على ابن أخيه ، وسبه ساقبيحا . وأبى لقيح بمس الشرف
والسب ، وهما عرض العربي الكريم على نفسه ، الكريم في قومه فكان
منه ما كان من إيذاء أبي حنكم في رهط من قومه ، ولم يحاول أن يفرد به
وهذا شأن العزير الحار . ولم يسمع انقلاب الموقف إلى معركة جماعية
بلا أمل أبي الحنكم (أبو جهل) أن يظلم اعتدائه من حمزة فبرئ عي
أعله ويحبه به من انصامه إلى صف ابن أخيه ودخوله في دبه ، وحوله
أبصر من أن يحدو كل بني هشام - أو بني عبد المطلب على الأقل - حدود
حمزة في الانصام إلى دين محمد ، إذا صارت المسألة معركة جماعية بين بني
هشام وبني مخزوم . . .

ولكن حمزة لم يتراجع ، وليس لحر كريم مثله أن يتراجع عما أعله على
رؤوس الاشهاد ، وفي الكعبة بالذات ، المكان الذي يقدره كل عربي
بعامته وكل قرشي بخاصة .

وأدركت قريش أن محمدا قد امتنع عليهم ، هذا السيد « المبع » . فهو
قوة صاعدة ردة . تمنع عدوان المعبس ، لأب قادرة على ردعهم كما ربح
عزير من أعزة قريش ، هو أبو الحنكم بن هشام ، فهاهنا إذن سي يحدث
لرحل سواء من عرض الناس ، إذا حدثته نفسه بإيذاء حفيد عبد المطلب

ولكن ذلك يمنع ابن أخى حمزة ، ولا يسمع سواد المسلمين من أنبأه ،
فما لث أن اشتد بهم الويل ، حتى هاجر معظمهم بن أخيه ، كما هو
معلوم .

وحسب السيد احمد تحرير النفس ولكنه ان يحمي من احيه سن
 صر به . ولكنه لا يتعرض لأش يعتدى ، ما هو فلا تحرك ساكن ولا
 يدس تحريك واحد . من « السيد » تحرير ذى امكة بربيعه المسم
 هـ ، وبن كات بقوه باسمه فادر على تحريك وسحقى بوشه
 إنه القوه ام دعه ماله . لا اضربه بده

أما عمر فهو ذلك جميعاً من منجذب بحكم صروفه لاحتيمه
 هـ نفسه . ونعت في حيله مصارعة . وفرص نفسه على الناس
 ويكره « مبيع بعد سلامه بخلف عن مبيع حمرة ، ويتفق مع سلبه
 وسيت شحقيه سى جعلت منه ذاك لصل المقصود . ادى بناحر كل
 حقومه ربه ربه . وسدثهم به كرهون . ويسط حميته ومعه على
 إحوته في ناس كفة . ويعمل نعت الافحام بالدعوة الخديده ، غير
 مكثف بالدفاع .



ويكن حمرة قد أعلن إسلامه . لا أمام النى والمسلمين سخوة من اسماع
 المشركين ، بل بعد عن النى والمسلمين ، وعن ملا من وجوه المشركين
 ووجهتهم . ويدت عرف الأعداء أنه ابحار للمعسكر الاخر أما عمر
 فكل إسلامه وسط المسلمين ، ولم يعرف بأمره المشركون الذين كانوا يعدونه
 من قضاة في مسوأة الإسلام .

وسكت النطل . مكتب هذا الإسلام في خفاء

معد القه ' ومعد اسطوره '

يقول ابن اسحق :

« حدثني رافع مولى عبد الله بن عمر عن بن عمر قال . لما أسلم عمر
 ابن الخطاب قال :

- بن قريش أنقل بالحديث -

فقيل له :

- جميل بن معمر الجمحي .

فبعد عمر عليه ويقول عبد الله بن عمر فعدوت نبع أثر أبي
وغير ما يفعل وأن علام أنقل كل مرأيت ، حتى جاء إلى جميل بن معمر
فقال له :

- علمت يا جميل بن قريش قد أسلمت ودخلت في دين محمد -

فوالله ما راحه جميل حتى قام بحج رداءه وسعه عمر ، ونسعت أبي ،
حتى إذا قام جميل عن باب المسجد صرح بأعين صوته

- يا معشر قريش !

وهم في نديهم حول الكعبة يسمعون -

- ألا إن عمر بن خطاب قد صاب

فيقول عمر من خلفه :

- كذب ! ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا
عبده ورسوله !

وأما إليه ، فم يرحب بهم ويفتخرون حتى قامت الشمس على
رءوسهم ، وضح (أصداه لإعياء) فجلس ، ودمر عن رأسه وهو يقول -

- فعملوا ما بدا لكم ! فأحلف بالله أن يوكد ثلاثه رجل تركهاكم
أو تركتموها لنا !

فبلى هم على ذلك ، إذ أقبل شيخ من قريش عليه حنة حنة و وحرة
وقميص موني ، حتى وقف عليهم ، فقال

- ماشانكم ؟

قالوا :

- صباً عمراً

قال الرجل :

- فمه ! رجل اختار لنفسه أمراً فهذا تريدون ؟ أترون سى عدى س
كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خلوا عن الرجل !
فوالله لكأنا كانوا ثوباً كشط عنه . . .

ويقول ابن هشام فى رواية أخرى على أثر ذلك .

« حدثنى بعض أهل العلم أن عبدالله بن عمر سأل أباه بعد هجرته
إلى المدينة » :

- يا أبت من الرجل الذى زحر عك القوم بمكة يوم أسلمت . وهم
يقاتلونك ، جزاه الله خيراً ؟

قال عمر :

- يا سى داك العاص من وائل لا حراء الله خير !



وفى هذه الرواية إبراز لكثير من سمات شخصية عمر ، فهو يقوم بإعلان
للكافة ، ولكل من يعنيه الأمر ، أنه أسلم ، ليعرف كل المشركين أنه غير
موقعه من القيصر إلى القيصر

ولم تكن هناك صحافة ولا إذاعة ، فعمد إلى تلك الإذاعة الحية على
لسان « رويتر » ، « فرىش » ، جميل بن معمر

ولبست المسألة عنده مسألة إعلان للكافة فحسب ، بل هى حركة

نفسه ، بحر الشكل ، مع حلفائه السابقين ، فهو لا يكتبى بظلال جبل
الهدى هكذا ، في القوم ، بل يتدخل ليريدهم عيطا وتحرشا ، كأنها بغريه
تفتح المعركة القتالية معه !

ألم أقل لك أن « معديه » يختلف عن معدن حمرة ، وأنه قوة ضاربة
متحدية ، لا ماعة رادعة محسب !

ونكاثر عليه القوم ، وهو يحالدهم ويخدهم سموده ، حتى الظهر ،
وأصده الاعياء ، فيكون قوله لهم أشبه بالاعتذار عن بغاد طافته لكثرتهم .
- لو كنت ثلاثمائة رجل (مسلم) لأحرقناكم ، فإم أحييناكم عن مكة
أو أجليتمونا عنها .

إنها مرحلة جديدة إذن في الدعوة الجديدة - مرحلة التحدى والحرب
من جانب المسلمين ، لا من جانب المشركين ، كما كان الأمر من قبل
وهكذا كان إسلام عمر بداية مرحلة التحدى والتصدي ، لا مرحلة
الموادعة والمدافعة .

ولولا ولد عمرو بن العاص ، وهو العاص بن وثيل بن سهم ، الثرى
بوحبه الأمتل ، لما انتهى ذلك اليوم هكذا ، فقد دبت عنه أسس وأحار
ومن عجب أن عدا الله بن عمر عندما سار أتاه بعد هجرة إلى المدينة
بعد سبعين من هذا الرجل حراء الله حبيب ، كان رده العجيب ، هو
فلان ، وأردفها بقوله :

- لا جزاء الله خيرا ...

هذه التعنتة ، الاستدراك لأحد الذين على مراح عمر لرجل دى
ظن معين ولدت به معيه من ي معه حبر ، فهو لا يستهويه ويأسره
معروف رجل دى لا تثبت فيه ، بل يدعو عليه ، فليس يعتبره في نصره
مهي فعل به ، بل يستهيه بمات على الخرك !

وهذه سمة عمرية ، لا أحسب الكثرين يشاركون فيها ، وهي عدم
السمع - نأى ثمن ولأى مقتصر مع أعداء إيمانه ، أى أعداء القيمة العليا
التي صارت قضية النضال الكرى ومدار حياته ونضوله

عمر يقود التحدي ولكن . . .

لقد رأينا عمر يتحدى وحده المشركين ، ويشترك مع عشرات منهم في معركة يدوية غير متكافئة العدد ، ولا تخصص لقوانين الماريات . وقلنا أنه افتتح بإسلامه - ويدافع من تكوينه الطويل الذي أوصحاه آنما مرحلة جديدة تماما في الإسلام ، هي مرحلة المناصرة .

ولكنه لا يخرج من هذه المعركة مستسما مندحرا ، بل يخرج منها ليعود إليها لا بمفرده ، بل بجمع المسلمين الموحدين في مكة . يعود إليها قائدا ، لا بطلا فردا .

ولقد فكر وهو في المعركة بمفرده بعد أن نال منه الإعياء أنه لو كان معه ثلاثمائة رجل مسلم لاشتبك مع قريش كلها في معركة حاسمة ، فلا أقل - وهم دون هذا العدد بكثير - من المناوشة والتحدى السلمى المسلح ، إن حاز هذا التعبير . وأعنى به ذلك النوع من استعراض القوة بغير هجوم أو مسخرة لسرال ، إعلان للحق الطبيعي في الوجود وإبداء الرأي .

وإنست هذه الخطوة باهية ، لأنها تحريك ، لفصية الدين الحديد من مرحلة التوارى ، أو الشاطئ السرى السلمى والذى بروج من الأكثرية ويحصى حقيقته بتظاهرة عكسها أحيانا ، وبين المحاضرة وهم على شكل جبهة عليه تنمست بحققها في الوجود و- الشخصية المعنوية ، كما يقولون في هذه الأيام .

ومن المعروف برواية الرواة أن عمر من الخطباء كان صاحب هذا

الانحده أو الخطوة الجديدة ، على أثر معركته الفردية مع ذلك العدد الكبير من رجال قريش عقب إسلامه ، إعلاناً منه للكافة وإشهاراً لهذا الإسلام ظل عمر بعدها بلح على النبي :

- ألسا يا رسول الله على الحق إن متنا أو حيينا ؟

وهو كما ترى سؤال لا يسأله إلا بطل مطبوع على التصدي للموقف تصدياً لا تحدث سواء نفسه بالانراء له ، والحرص على هذا الانراء ولو كانت نتيجة الموت !

فيجيبه النبي :

- بلى ! والذى نفسى بيده انكم على الحق ان متتم أو حينتم !

فيقول عمر متسائلاً في دهشة لا تصدر الا عن مثله ، وأبين في الناس مثله :

- فميم لاحتفاء ؟ والذى بعثت باحق لبحرحس !

وهو كما ترى كلام رجلي لا يسأل الموت المحقق في مسيل موقف مدنى وهذه - كما نبت الله - سمة البطل المطبوع ، التى تميره عن غيره من شعاع لرحال ، والشجاع بحس تقدير الموقف ، ولا يخار للمعركة مع عدوه الوقت الذى يكون انتصاره فيه على عدوه راححاً أو محتملاً ، أما لبطل مطبوع ففطن يفكر فى العواقب إذا تعق الأمر بقضية كبرى أو قسمة عيب وهى حياته وعمر المسلم قد وهب ديه حياته كلها كما سترى

وليس من شئ أن المسلمين فى ذلك الصوف كان فيهم كثيرون من أشجع أشجع ، وأشد هم تمسكاً بدينهم ، وعلى رؤسهم سيهم ، ونكهم كانوا يعدرون لموقف - كما يقول العسكريون - ولا يدفعون إلى المعركة فى ظروف تجعل ساداتهم ، ولخصاء على سرة يدين حديد ، أمراً محموراً لا محل للمراء فيه .

هذا كذا يستحقون . لاحول من موت أنحاصهم . بل حول على
 الدين الدنى ، الذى هم كل مملوك فى بلد الشرك والنسبة
 ولكن إلحاح عمر جعل السى وأصحابه يظرون إلى الأمر بالعين السى
 تطور الموقف تصوير سياسيا ، وتغير موازين القوى المعوية فى قرش .
 وذلك لما فى مشورة عمر من : إعلان الوجود الخهوى والمعوى ، لندس
 الخدي . بحيث تقوى عرائم مسلمين ، لأن الاستحقاق بوهنهم ويجعلهم
 فى موقف مستضعفين المظالم . أما الاعلان برفع الهامة ويعبر الكرامة ،
 ويعرى نفرا من الأعداء بمراجعة موقفهم

إلا أن السى وأصحابه لا يريدون : حملة عسكرية . ليس هد
 أوامها ، وإن كان عمر - أعلن الفظ - ميلا إليها - بل هم يريدونها : حملة
 سلمية ، لزيادة حقوقهم فى الوجود ، وإثبات هذا الوجود وهذه
 الشخصية المعوية ، للدين الحدي . ولكن حملة سلمية مسلحة متلاحقة
 تصفوف مستعدة للدفاع عن نفسها عند لأقصاء

ويقول الرواة أن لمسلمين خرجوا على أثر إلحاح عمر فى صفين أحدهم
 فيه عمر ، ولا حمر فيه حمرة ، فأثر خروج الصفين ، أو السريتين بلغة
 عصرت عشر كثيرا بحصوهما منظم الذى يدق الأرض ، إلى أن دخلوا
 مسجد قرش نظروا وقد عنها تكلم ، ولا يقدر سيطر مبه ولا حكمه أن
 بقا من صفين فيهم هدر الخدران

هذه مرة عشر قد عاد مواجهة قرش فانه كنيته لأفرد ، فى ذلك
 والعرض بقوة : المناهضة للدفاع ورد من يتعرض لها . وأكبر حتى أنه يترك
 الجدل لعمر على العرب لشها عدة ومعركة . ولكن حكمة السى وأصحابه
 دوى حكمة : لو قدر وصفت الأمر فى هذا المصاف ، لندى حاء حصوة
 طبيعة حاسمة حدة ، تعرف بين التورى ، لا قرر بالضعف ، وبين الاعلان
 الوجود ، لا صبر على التحدى المعوى بصفة حصة : شوجه حرمه

بصلاة وأبر ٩ في الكعبة قدس أقداس قريش التي يهدم الدين حديد
دينها القائم !

وكان عمر البطل ، وهو في موقف المدجزة سمردة يتوعد قريشا لو كان
مسمون ثلاثئة رحل قدر على المصاولة لشها معركة حاسمة ، إما البقاء
وحدهم وإما الحلاء عن مكة . وهو في طبيعته المدفعة وفي اعتداده نفسه
قدر ذلك العدو أقل مما ينبغي لتلك المعركة الحاسمة بكثير . ومع هذا فعدد
رحل المسلمين الأشداء لم يكن يبلغ عشر هذ العدو . أما الناقور فمن
الصغار والساء ، وكثيرون كانوا قد رحلوا إلى الحبشة فرارا بدينهم من
الاضطهاد والعذاب .

فهذا العرض السمي للقوة ، هو أقصى ما كان ممكنا في ذلك
نصرف . وهو ثمرة إلحاح عمر الذي عاد للتحدي قائدا لا فردا ، ولكنه
يحد معسوى لا تتوفر له أسباب وعناصر تحويله إلى تحد قتالي . والشعور
وارعة لديه موحودان . بل إن الرغبة عنده تاكل صدره ، حتى ليعجب
ددا لا يباحرون قريشا ويحرجون إليهم ، ولو كانت النتيجة هي الموت ،
ماداموا على الحق . .

وحق ، أو العقيدة ، هي لا كل شيء ، وهي أهم من الحياة ، إن
حياة تهون في سبيلها بغير تردد

وهذه هي روح البطولة . . .

ويكف نجد من سبه وصحبه و ينجم هذه نفرة حذره تدفعة للقتال ،
فكرو بقدر الموقف ، وينحيز لكل فعل وفنه املائه

ولكن هذه « سواحجة السمية السدحة » التي ثمرها إلحاح عمر ،
ويتم تحت حمينه وحميه احدر « السيد » الأمل حمرة كانت لها ثار لا يغفل
عن ثار سواحجه لفتيه فكثيرون كمن قلد به ، ممن كانوا في قريش
مبارك للاسلام ، لكنهم يرون المسلمين مصطفين سوارين أو يباحرون إلى

حينئذ ، تحسروا على الانصاف المتسمين ، وقد رأوهم يقومون بهد
لمصاهرة اسلحة ، ويصلون حول الكعبة ، مشين وجودهم المعصوي ، وقد
شجع كثيرون من هؤلاء ، وأغروا سلامهم ، ورددت « الحجة » فوه
وعندا .

وعندئذ أدركت قریش أن إسلام عمر كان فتح مرحلة جديدة ، أشد
حضورا من ذي قبل ، وأدعى لاستنفار قوه وحشد جهودها بمقاومة .

ولولا حمية سي هاشم لمحمد كانت قریش أقدمت على « علاج
الحاسم » الذي فكر فيه عمر ، حين نوحش سيفه ليقنله ويقضي على
« الفتن » بأن يقنعها من حدودها ، وما تحب فائل قریش أن تشب فيها
حرب أهلية دموية ، ولكن قریشا قبيلة « المعاملات » و « التجارب » فبكر
حرب إدن لآل محمد وحماته حرب تقوم على « المصافة المدنية » في معاملات
والتجارة !

لا تروح مع سي هاشم ! ولا بيع ولا شراء مع سي هاشم !

هو حصار المدنى والاقتصادى إذن ، إلى حد التحويل وكسوف هدى
لعهد وثيقة عصفوف في بيت وشهم بالكعبة فكان ذلك من قریش
« مواجعه سلميه » ردت به على المواجعه التى تمت تحت حمية عمر وحمرة ،
ناجح من عمر ، وكان من نتيجة هذا ارد السياسى الاقتصادى العيف
من الأغلبية الساحقة على الأقلية المسحوقة ، أن تراجع من المشاركين من
حدثهم بنفسهم بالإسلام متشعبين بمصاهرة عمر

هى حجة حرب إدن ، ها كل مقومات الحرب فيها عدا الاشتباك
لعكرى ، وهى حرب قاسية لم يعد لدرحة - ولا لصلوات الرحم - فيها
مكان

ولست أظن عمر إلا كان مبالا في طلب الاشتباك أي كانت نتائجه ،

كن ، فيدنه ، التي تسنهم وحى السماء ، كنت توده عن عمل بعرض
حرمه كنه للخطر الذي لا يقف دور القضاء إذا انحرفت إلى ما يدعو إليه
عمر . .

وفي فترة هذه المحنة ، التي طالت أكثر من ثلاث سنين ، بدأ النطل
مصنوع بممرس شىء ، لم يعهده اندفاعه الفردى من قبل ، ألا وهو
، الانصاف ، والطاعة لما يؤمر بأنه أمر صادر من مستوى فوق مستوى
شئ وهذا ما يهون عليه الخصوع والإذعان ، فما حسب أنه كان خفيف
ن تطيب نفسه بالطاعة لشئ مثله يذب على قدمين ، لولا الايهن الحديد
الذى ملك عليه نفسه .

البطولة تدخل مرحلة جديدة

ولما آتوا أن بطولة عمر أدخلت دعوة الاسلام مرحلة جديدة . ولكن ما أحذروا أن نلتفت إلى ملحظ لا يقل عن هذا استرعاء للانتباه : وهو أن اسلام عمر أدخل بطولة عمر مرحلة جديدة لعبت معها إليها في السطور السابقة بإيجاز .

فتكوين هذا البطل المطبوع تكوين فردي اندفاعي مستقل معتد بنفسه ، لا يعرف التردد في سلوكه المقتحم المتحدى . ولكن دخوله في الاسلام لئلا أعر الاسلام ، إلا أنه أدخل هذا البطل بوتقة صهرت فيها مكوناته النفسية ليخرج منها خلقا آخر : ليس فرديا في اندفاعاته واتجاهاته ، بل له « بوصلة » داخلية لا تخصه وحده ، ولا تنزع منه وحده ، بل توجهه بأوامر ربعة من قيادة عليا ، عليه الآن أن يتكيف بها في تصرفاته ، وإن كانت لم تطل قوة جيشاه وسورات اندفاعه في خدمة اقضية الكرى التي آمن بها .

هذه القوة المتدفعة الجارفة ، عليها الآن أن تتعلم كيف تكون « محكومة » لا طليقة العنان ، بل عندها في يد مجربها . فهي قوة هائلة كما كانت ، إلا أنها قوة « موجهة » و « محكومة » . وإن كان ذلك لم يقص تماما على اندفاعاتها الفردية التي تأبى الاستسلام التام للشكائهم واللجم !

أجل : إن الجواد الوحشي الجبار آله أن يدخل مرحلة « الترويض » الذي يجعل منه قوة نافعة للأعراض الجديدة ، وإن بقيت له من تكوينه الأصلي سورات اندفاع ، عليه في المرحلة الجديدة أن يعرف كيف يقمعها !

إمها مرحلة « الانضباط » ، التي تربطه بسياسة الجماعة ومصالحها ،
ولا يترك حنقه على العرب ، يدفع كلما ثارت نفسه المردة

وأى مدرسة للترويض لابد أن تلعب في عتقها مسوى يرتفع إلى مستوى
« ضراوة » الجواد المراد ترويضه .

وهكذا كانت السووت التي تلت إسلام عمر .

وفي قبوله هذا الترويض العنيف لدى يناقض تمام المناقضة ادفاعه
الأصلي آخر الذي طمع عليه ، ما يدل على ملع اتجاه جبروته ضد برعائه
العصرية إطاعة لهذا الإيمان الحديد ، بحيث رضى أن يراص على عكس كل
مافيه هواه وطبعه الذي شب عليه

وسطر في سيرة ابن هشام ، نقلا عن ابن اسحق :

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا
(في الحبشة) بلدا أصابوا به أمت وقرارا ، وأن الجاشي قد مع (حمى)
من لحأ إليه منهم ، ورأوا أن عمر قد أسسم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الاسلام يفسو في
القبائل ، اجتمعوا واثمرو أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على سى هاشم
وبنى عبد المطلب على ألا يكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم
شيئا ، ولا يبتاعوا منهم شيئا . فلما اجتمعوا لذلك كتبه في صحيفة ، ثم
تعاهدوا ونواثقوا في ذلك ثم علقوا الصحيفة في حوف الكعبة

وواضح أن إسلام عمر كان حاسما في فرص معالم جديدة على الخريطة
السياسية في قريش . فهذا كان من نتائج ذلك ، في سيرة ابن هشام أيضا ؟

« فجعلت قريش حين منع الله نبيه منها ، وقام عمه أبوطالب وقومه من سى
هاشم وبني المطلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ،
يهمزونه ، ويستهزئون به ويخاصمونهم » وجعل القرآن ينزل في قريش

بالحمد لله . وفضل نعت محمد بن مسلم . وفضل من سمى به (وفضل عمه
 به شرف ومرتبة له جميل حمادة حبيب) وفضل من رآه في القرن في عمارة
 من ذكر الله من الكفار .

ويقول ابن إسحق :

وكان يسمى له عن أم محمد راحة أبي هاشم حمادة حبيب لأبي
 كعب . فسمي نعمي نعمي شريك في صفة عن صفة رسول الله صلى الله
 عليه وسلم . ونية من حلف من وهدى كان به رأى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم همزه ولمزه . . .

والعاصم بن وائل السهمي (بن عمرو بن العاصم) ذكر
 حديث من لأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نمكة عميل
 السوف . وكان قد رجع العاصم بن وائل سواد عمه به حتى كان له عمه
 مال ، فحماه بتقاضاه فقال له :

يا حبيب الناس يرغم محمد صاحبكم هذا لئلا أت على ذنبه أن
 في حمة ما يتعمى أهلها من ذهب أو فضة أو ناس أو خدم ؟

قال خباب :

- بلى !

قال العاصم :

- فندرس في يوم القيمة يا حبيب حتى أرحم إلى تلك نذر فأفصحت
 هاتك حلفت . فوالله لا يكون أنت وصاحبك يا حبيب أثر عند الله مني .
 ولا أعظم حصص في ذلك !

بل إن هذا الحوار التهكمي كان أشد فطاطة مع سبي الاسلام
 شخصه ، ومثال ذلك ما روى عن فطاطة أبي من حلف واستهزائه
 وتهكمه به .

وهذه عيادت من « لاداء » الشيء ثم العمل الحقيقى ، ما بعد
العمل المصعق من المسلمين ، ولا يصح العبد منهم ، عذبه بعث
فقد كان لعمل الدعائى لى مثل فى محاضرة المسلمين بسلامهم بعد
سلام عمر وثقتهم به اثره يرجع قريش ، بقول نمر من أهل مكة على
السلام والاحياء على اغلاله ، ويقول بن سحن

« وينع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى
رض الحنفية سلام أهل مكة ، ففسوا لا ينعهم من ديث ، حتى إذا ديو
بن مكة ينعهم ن ما كانوا يحدثوا به من اسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم
يدخل أحد منهم إلا لاندأ بحور قص من أقطاب قريش ، أو
مسحقا »

ذلك أن قريش كانت قد أقدمت على العمل السياسى والاقتصادى
لمصاد كما ذكرنا ، ففنى كثيرون ممن كانوا قد تحسروا على الاسلام ،
وأصبح موقف شديد لاره

وما كان عمر ، لومعى على حاله الفردى ليسكت ، بل لاند أنه كان
يسدفع للمحالة البدية والانسائك فى ملاحم فردية ، ولكن الروايات لم
تذكر شيئا من هذا ، مما يدل على أنه دخل مرحلة الترويض والاصطاد

ثم شتد لأمر فلحاً كثير من أقطاب المسلمين إلى الاستحارة ،
بأقطاب دوى سطوة وحاه من المشركين ونحن نعلم أن العاص بن وائل
هو الذى أثار عمر ، وأما أبو بكر فدخل فترة فى حوار ابن الدعة ثم رد
حواره إليه عندما أراده على التكنم فى قراءة القرآن

وبلغ الحصار الاقتصادى ذروته على أثر وثيقة الصحيفة ، فاضطر
المسلمون أو بنو عبد المطلب ، إلى الاعتصام بشعب خارج مكة ، لا يبعد
إليه أحد بطعام ، حتى كادوا يهلكون ، لولا شفقة بعض دوى الرحمة من

لنرضيهم الدين أنت أحلافهم عليهم قطع الأرحام إلى حد القتل جوعاً ،
وفي اجمع أفعال صغار لا طاقة لهم بذلك .

وطول هذه السوات الشداد كان عمر لا يزيد على أن يتحمل هذا
العسف والصبم والمصادرة ، شأنه شأن بقية المسلمين ، ولا ينرى للاشتباك
فلو أنه كان منه شيء ، من ذلك لما فات الرواة أن يرووه عنه .

فهو السكوت المطلق من جانب عمر ، أدليل هو على نقص ما أئتمناه
له من روح الطولة المطبوعة ؟ وإلا فأين ذهب اقتحامه وإبادة السكوت على
صميم ، وعدم المبالاة في سبيل ذلك بالعواقب ؟

بل الأمر في رأينا بالعكس . فطولة عمر التي كانت مندفعة بغير زمام
ولا خدام ، قد تطمعت وانحطت إلى الداحل . إلى قمع هذه الاندفعات
الحبوية الحامجة . لكي تنحصر وتستسلم أليس الاسلام أن يسلم المرء لله
وما يأمره به ؟ إنه الآن أسلم ، وعليه أن يمثل لما يصدر إليه من أمر الله ،
على لسان نبيه الذي أمر به ، مهما حالف هذا الأمر ما ينزع إليه طمعه
الجامع ...

ولست أتصور عمر في هذه السوات ساكن النفس لا يجيش بالرغبة في
الاشتباك بالكفار ، بل أتصوره دائم الزوع ولثورة على هذه « السلبية » ،
ولكن من يقوم بترويضه بزجره ويرد من اندفاعاته ، فيجعل طاعته امتحاناً
لإيمانه وتسليمه ...

وكان عصف لاصطهاد مدعاة لعصف إثارة طمع عمر العفيف ، وهذا
مقياس يبين لنا صرامة ذلك الترويض الذي تعرض له ، فما أشبهه
بالترويض الذي يتحكم في ثورات الراكين ، ويرعدها على قمع شواطئها
الجامع ...

وطل عمر إلى أن صدر الأمر بالهجرة إلى المدينة التي أسلم كثير من

هناك وابتعدوا على نظرة النسي ومنعه مما يجمعون منه أنفسهم وآهه فهاجر
فمن هاجر .

ولقد أعزى علف عمر بعض المؤرخين أن يرغموه خالف أمره في
لاستخذاء عن لخرة ، فقالوا « هاجر الجميع مستحقين إلا عمر ، تكب
نفسه وتوشح سيفه وتحذى الفرشيين في دار الدوة أن يتبعه منهم من شاء أن
تكنه أمه » . ولكن رواية السيرة ، من اسحق بن هشام ، وغيرهم
من تنقت لا يروون شيئا من هذا . وهو الدليل على أن لطن قد تخرج
بذلك السنوات سجاح عظيم في مدرسة الترويض وصار أهلا لطور
حديد .

ويسعى أن تنتهز هنا إلى مبحث بالغ الأهمية ، فذلك الترويض
عصف عاية لعف كان ينصب أساساً على سنوك عمر وعلى تصرفاته أم
حشاش نفسه . وأن مشاعره فلا سبيل ولا سلطان عليها لأحد سواء

وفي حشاش أن ذلك لكف الشديد لحيوته وبتفاعله لم يكن من
يمكن أن يلعب حيويته الدافقة التي كانت « موضعه » في التفاعلات الحائجة
طور حياته حتى تلك الحقبة . والتدوين القصصى أن القوى الطبيعية تعالیه
سعى تجمع مظهره في شكل معين لا موت ، بل تتحد هذه القوى تعالیه
تصرفه حراً في غير مقصود المسدود

فمن صدر الترويض منبت عمر الباطنة . فلا بد أن يوه لتعاليه
حرفة تخدمها محلاً آخر لشخصها غير محال الفعل البدنى . ويسعى
مامها في هذه حالة غير المنحل الشعورى ولدهنى . وهكذا يرد نشاط
حيويته إلى داخل سريره ، عوصه عن لانه حرجى . وبك طوأل
بذلك السنوات على تأمل مشاعره وأفكاره . وتعمقها . ومرتبه حوطره
وباعده مرفقة بقطعة عاية لبقطة حتى لا يفلت منه رمامها . فتخرج عن
سطق البدنى رسمه « البصام العدم » فلم يكن مدحا في بات القوان حتى

ذلك الوقت قتال المشركين ولم يحل للمسلمين صفك الدم . من هم
المدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . ودفع الأذى بالنار هي أحسن
وذلك فنقص « برالية » عمر التي طبع عليها

فلم يكن أمام عمر في هذه لسنوات إلا أن « يدار ذات نفسه »
ليخرج في السيطرة عليها ، ومرفقتها ، مسببها نظر ، لأنه يعرف ما فيه
ودرجت عليه ، مشند في ترويضها المتروض عليها من « القصة لعب »
و « القصة الكبرى » التي وهب حياته مد أسسه

ومن هذه مراقبة والمعالجة عرف إلى أي مدى تكون النفس أمام
السوء ، رعة إلى إشباع الشهوات . وتقدر إيمانه بدينه كانت شدته في
محاربتها .

ومن هذه مراقبة ومحاربة نفسه وبرعها نظرية عرف أن داخل كل
إنسان مثل هذه سورج . وورع في معرفه نفس لشربة بوجه عدم ، براعة
أكسنه فرصة عصبية ، بعبته كثير لم يعد . وهكذا صار سيء طين بكر
من يتولى سيطرة تيسر له إرضاء بوارعه الخفية . وبذا ذلك في معاملته لولائه
بعد أن صار أمير المؤمنين .

ومن طريق شدته على نفسه ، صار مؤهلا للدور العظيم الذي أتبع
له بعد انهجره وقيم بدونه لاسلاميه في عديته ، لأنه صار يدرك ترويض
نفسه بعد انذار من الرجا تشددهم بدول

رجل الدولة

تمت المهجرة وبدأت مرحلة جديدة حاسمة في تاريخ الاسلام ، ومرحلة جديدة حاسمة أيضا في جهاد الطل المضروع الذي أصبح مروصا مصصطا في تلك السوات العسرات التي سقت المهجرة

فالمهجرة لم يعد الاسلام مطاردا مصصطها ، بل صار له حمى مستقر مصون من الأنصار في يثرب ، لاد به المهاجرون وتآخوا معهم وصار أدم عمر محال لدشاط مختلف عن المحال الذي كان يستثير نفسه في مكة ، كحتلاف الأمن والأمان عن الصلث والمصادرة

وفي هه الاطار الخديد يصح لعصر من أهم عناصر شخصية عمر الجديدة شاط بارر مستقيص . وأعى بذلك ما كان يتمير به دواما من حدة الدهس . واستقلال الرأي ، وصدق العراسة التي اصرفت كل قواء النفسية الحارفة إليها في سوات الترويص . وهي أمور تدعو الحاجة الملحة إليها في تأسيس الدول وسياسة الرعية ، والاتصال بالمحالفين والتعامل مع المحالفين . وفي المدينة (يثرب) لأول هوط المهاجرين إليها ، كان فريق كبير من أهلها ، الأوس والخزرج ، قد أسلموا ولكن بقي سائرهم على الشرك . وكان على أرباص المدينة معقل اليهود . فكان التعامل مع هؤلاء هؤلاء ، يحتاج إلى الرأي وإلى الكياسة وحسن السياسة .

وفي هه الأمور بدأ يبرز نفاذ بصيرة عمر ، وحسن دهانه رويدا رويدا . إلى جانب ما يدعو إليه الحال من الاستعداد لحرب قریش عندما يأتي أوان الحرب .

وكان الإذن قد نزل على النبي وهو في مكة ، قبل الهجرة حتى
الرواية المسندة إلى ابن إسحاق قوله :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في
الحرب ، ولم تحلل له الدماء . إله يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى ،
والصبر عن الجاهل . وكانت قريش قد صطهدت من أتبعه من
مهاجرين ، حتى فتوهم عن دينهم ، وتوهم من بلادهم ، فهم بين
مقتول في دينه . وبين معدن في أبيديهم ، وبين هرب في البلاد هرازا
منهم منهم من تأرض الحشنة ، ومنهم من بالمدينة ، وفي كل وجه »

وهذا حال ، من تحريم القتال على المسلمين ، وأمرهم بحمل الأذى
في صبر وصمت ، والصبر عن الجاهل ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة
والموعظة الحسنة . هو الموضع الذي صار سبوت روصت فيها صبيغة عمر
الخاتمة بأفنى ما يمكنه الترويض لنفس مثله . كما أشرنا لها

ويستطرد ابن إسحاق القول :

« فلما عنت قريش على الله عز وجل . وردوا عليه ما أرادهم به من
الكرامة ، وكذبوا به صلى الله عليه وسلم ، وعدوا ويصوا من بعده ووحده
وصدقوا به ، وعنتهم بدنه . أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه
وسلم في القتال ، والامتناع من ظلمهم وبعي عليهم ، فكانت أول آية
أنزلت في إيمانه في الحرب . وإحلاله له الدماء واقتدار من يعي عليهم .
فيما يعي عن عرويه من الرية وغيره من المعنى قوله تعالى

« أذن للمدين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير .
لدين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا رسا الله وليبصر الله من
يبصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا
الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »

ويستطرد ابن إسحق أيضا فيقول معقبا على ذلك :

فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في الحرب ، وبإيعه هذا الحى من الانصار على الاسلام والنصرة له ولبن اتبعه ، وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها . . .

فألحزة إذن كانت الخطوة المؤدية للقتال فيها بعد صد المشركين فطبعى أن الفترة الأولى يشرب كانت لإقامة « مهد » الدولة الإسلامية الوليدة أولا ، كى يتسنى على أثر ذلك الصور إلى القتال . وفى الطورين جميعا ، طور تمهيد الدولة وإقرار الأمان ، وطور محاربة الأعداء ، مجال فسيح لعمر صاحب الرأى الأملئ ، وعمر المقاتل المحاهد على السواء ولعل أول نادرة من بواذر الرأى الأملئ كانت مسألة الأذان وبها قال ابن اسحق :

فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة ، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفرضت الركاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرص الحلال والحرام ، ونشأ الإسلام بين أظهرهم

« وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان وقد كان رسول الله ﷺ حين قدمها إياها يجتمع الناس إليه للصلاة حين موافقتها ، بعد دعوة فهم رسول الله ﷺ حين قدمها أن يجعل يوقا كوق اليهود لذين يدعون به لأصلاهم ، ثم كرهه ثم أمر بالساقوس (الجرس) ، فاحت ليصرب به للمسلمين للصلاة » .

ثم فى سدة لاحقة يقول ابن هشام عن ابن جريح :

قال فى عطاء : سمعت عبد الله بن عمير الليثى يقول .

اثتمر (نشاور) النبی ﷺ وأصحابه بالنافوس للاجتماع للصلاة ،
فيسا عمر بن الخطاب يريد أن يشتري حشنيين للنافوس ، إدرأى عمر بن
الخطاب في المنام . لا تجعلوا النافوس بل أدنوا للصلاة . فذهب عمر
إلى الخطاب إلى النبي لينخبره بالذي رأى ، وقد جاء النبي بذلك ، فما راع
عمر إلا بلال يؤذن . . .

وحس نفس رؤيا المنام هنا تعسيرا طبيعيا ، بأنها انعكاس وتكثيف
لأشغال نفسه هذا الأمر ، ونزوله على أنه فرط رهافة حس وانقاد شعور
لكل ما يخص أمر العقيدة وأهلها وما ينصلح به حالها .

وحسث من نهاية هذا التفكير أن عمر انصرف إحساسه إلى وجوب
تمييز الدعوة للصلاة الإسلامية . فليس كان الوق أدلة لدعوة إلى صلاة
اليهود في المدينة ، فمن شأن استخدامهم للدعوة لصلاة أسدمين أن ينشده
لأمران وتنشاه الدعوات . وقد كره النبي ذلك . وأكبر نفس أن ما ذكره
هو السبب وراء الكراهية .

ولم يكن في المدينة نصارى يدعون إلى صلاة بالنافوس ، ولكن العرب
عرفوا في الشام وعبر الشام استخدام انصاري للنوافيس . فلتفكير في
الادان الذي هو بدء بالكلام والدعوة الكلامية ، إنه هو تفكيره أنه سيد كبير
من « علم الإعلام » ، لأنه شر بصوت يرتفع لشعيرات هذا الدين
الجديد . .

وعلى هذا لقياس سجد عمر بن حواري النبي صلى الله عليه وسلم وتفكير
للمستقل الذي لا يسير في الدروب المطروقة ، وسجد إلى لسان الأمور
باللمحة التي هي من حصائص الأهد ولا مرأ ، ولا سبيل في شغره لا يرى
التي بدأت فيها المؤمرات بين يهود وبعض منافق أهل المدينة الأمر
الذي يحتاج إلى حكمة وحس سياسة ، لا شئت أن عمر كان يشرك فيها
بعض المشاركة . ولا شئت أيضا أنه كان يعلمه من النبي صلى الله عليه وسلم في هذا

سبل صعاف ما يسهم به . . ولكنه على كل حال كان يشارك بالرأى ،
غوى ويسمع ، ويريد مرته في أمور السياسة ، إلى أن يأتي دور الحرب ،
ويدلى بره المستقل في جميع الأحوال ، أحد به أولا يوحد ، لأنه انصل
الدى تم ترويضه و ستسلم لإيابه .

فلا ريب أن عمر في هذه المرحلة ، مرحلة رجل الدولة كان لا يتردد
في إبداء ريه مستقل لدى تصرف قواه النفسية كافة في سنوات الترويض
على تربيته ، حتى ولو خالف رأى لى ، ولا يتردد في معارضته بكل
الخمسة التى بقيت من سمات شخصية عمر « الرجل » ، لأنه ظل مطبوع
على التصدى لتطرف لكل ما يعتقد أنه يصير قصيته الكبرى التى وهبها
حواسه وتفكيره وقوته وحياته .

أحل كان عمر رجل الرأى وانفس معا ، ولكن دوره المحد أنه كان رجل
الرأى الأملعى المستقل .

وفي عروة بدر حطب عمر ، كي حطب أبو بكر ، لتحسيس المجاهدين
على القتال ولا شك في أن هذا الظل المطبوع وحد في عرويه بدر فرصة
لتحقيق داته القتالية التى طال به عهد انتظارها عند سين وفي هذه الموقعة
هزم المسلمون أصعاف عددهم من رجال قريش ، وقتلوا منهم حلقا كثيرا

ولكن ليست البطونة في القتال يومئذ ، سرمى إليه من ذكر عمر ، بل
بى ما كان من الرأى في أسرى المشركين ، وكبوا نحو سبعين رجلا فهو
رأى لا يسع إلا أن كانت له عناصر عمر النفسية ألح على السى أن
يقتلوا ، ولكن السى أثر أن يأخذ فيهم الفدية من أهم ، عسى أن يكسب
قلوبهم وقد أسلم بعض هؤلاء الأسرى ومنهم روح ريب اسمة السى

إبه علف عمر ، وشدة بأسه ، لا يعرفان حدا يفتان عنده ، ما دام
قتال هؤلاء الكفار قد أدن به القران ، وأحل دمهم .

— وهؤلاء - رسول الله هم ' كذبك وفاتيك وأخرحت ،
وصرت رفاههم فهم رؤوس تكفر وأئمة تضلله موصىء به بها
بإسلام ويدل بهم من أهل الشرك '

ها هـ عمر الرجل ' عمر ذو نصع حذو ومرج العفيف ' وهو نصع
عمر ذو الرأي مستقل ، تصرف في تعيينه عن استد وأخيرة على لعنه !
وما كان أبو بكر أقل منه حمسة ، ولكنها حمسة سبق ومرحله أو صعه بدى
بوتر صطاح بقوت ، وسرحه لعقوعه منصرة

وفي هذا الموقف ، تختف « سياسة » عن « حميه » فرديه « التي
ستوعب بها عمر عقيدته وتصصعت عنه بقسعتها لعمرة ' سياسة
قرارها تعكس على الجمعية كلها ، ويشعشع أن يكون لها فيها رأى وقد
شاور نسي أصحابه ، من مهاجرين ولأقصاء ، فأثرو قبول ادب أو
العديت ، كي تقوى بها الحالة الاقتصادية عدا لأن يرون مهاجرين
بالمدينة جعل أخاه ماسه إلى ، بشاءات « للاستكان والموافق ، وإن أموال
للمعيشة ، ولشر ، السلاح وهذه لأعرض كان بعت لسريسي مستف
عروة بدر بكتري وهمها سرية حمرة إلى سيف البحر وعروه بوح وعروة
العشيرة وعروة صفوان ...

كان أصحاب النسي - عدا عمر منفردا برأيه - لديهم ممراتهم معقولة
المحسونة بحساب الواقع ، وأصحاب الدولة ملحة

ولكن عمر أصر على رأيه ، لأنه مدفوع بالمبدأ الذي استوعبه « وأعشى
هذا أن المبدأ استوعب عمر » ، وأن المبدأ صار يطق على لسانه ، مستعيرا
رويته وطبعه الحد المتطرف .

أصر وإن رصع مرغما إلا إنه لم يقنع فما أن وجد رجلا بين
الأسرى من أشد حضاء قريش عفا في التمدد بمحمد ودينه ، وهو سهيل
بن عمرو ، حتى ألح على النسي أن يجمع نسيه - وكان الرجل أعنه أن

مستفوق الشعة السفلى - فإذا خلع ثيبيه لم يستطع الخطاة بعد أن يعود إلى قريش ، ويكف بذلك أذى لسانه عن النبي والمسلمين

واستفطع النبي أن يستخدم المثلة . . . أي تشويه الجسم - بعد أن قبل فيه المدينة - ومرة أخرى ارتد عمر كاسف البال ، بغل صدره بالغبط ولكن لم يلبث أن نزل قرآن في هذه المسألة بالدات .

- ما كان لسي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم • لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم !

(سورة الأنفال)

والآية قاطعة بالتسديد بمن أرادوا عرض الحياة الدنيا ، وهو هديات الأسرى ، وإن رأى عمر بن الخطاب ، الذي تمرد به ، هو حير للعقيدة وللدلين .

وكان ذلك أول انتصار أبرز المعية رأى عمر ، في تطرف إيمانه وحماسه له إلى أبعد الحدود .

ولا شك أنها كانت نقطة تحول في مركز عمر ذي الرأي الأنمي المستقل ، بين أصحاب النبي ، أي بين رجال الدولة الإسلامية الناشئة .

وما يريد أن تتعق من مواقف الرأي عند عمر إلا ما كان له شأن بارز في اظهار سمة استقلال الرأي والنظر فيه للمبدأ والعقيدة . فقف مليا عند يوم وفاة عبد الله بن أبي س سلول ، كبير المنافقين ، الذي تعددت سوابق نفاقه .

وسفل ها نص كلام عمر بن الخطاب كما ورد في سيرة ابن هشام باسناده :

سمعت عمر بن الخطاب يقول :

- لما تولى عبد الله بن أبي دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بصلاة عليه ، فقام إليه ، فلما وقف يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت
في صدره ! . .

وهي حرة لا يقدم عليها إلا عمر الذي ينطرف في التعبير عن إيمانه ،
حتى مع سى هذا الإيمان ، لأن إيمانه مات يملك عليه مجموع نفسه وبحركها
بها فيها من قوى فطرية .

ويعود لرواية ابن هشام لكلام عمر :

فقلت له :

- يا رسول الله ! أتصلي على عدو الله اسى أبى بن سلول ؟ القائل كذا
يوم كذا ، والقائل كذا يوم كذا ؟

ورحت أعدد أيامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم ، حتى
إذا أكثر قال :

- يا عمر أحر عنى ! إننى قد خيرت فاحترت ! قد قيل لى استغفر لهم
أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ! فلو أعلم
أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت !

قال عمر :

- ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومشى معه حتى
قام على قبره ، حتى فرغ منه ، فمحببت لى ولحرأنى على رسول الله صلى الله
عليه وسلم . والله ورسوله أعلم ! فوالله ماكان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان
الآيتان :

- « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا . ولا تقم على قبره . إهم
كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ! » .

موقف قد يدل على الاعتداد بالرأى ما كان عمر ليقدّم عليه - لو أنه فكر بعقده لموضوعى الذى يشترك فيه كافة الناس - حتى به بعد رفض سبى إلحاحه عليه ثاب إلى نفسه يومها « لأن الله ورسوله أعلم »

والذى حركه إذن هذه الحركة العمرية العارمة التى لا تتراجع أمام شىء ، لم يكن تصرفه من حيث هو عمر الرجل ، بل من حيث هو عمر العقيدة ! عمر « الرأى الألعى » الذى يعبر عن العقيدة ويجسدها ، وهى مسئولية على كيانه كله ، فيدفع - بل قل تدفعه قوة الإيمان التى تدسّنه بكيانه كله ، فهو مسحور لها ، وإن كان يبدو أنه يتحرك من تلقاء نفسه فهو لا يتصور للعقيدة وضعاً إلا ذلك الوضع الذى يليق بها فى وحدانه

وموقفه هذا من لدد العداء لعدو الله عبد الله بن أبى سبؤن ، يفسر لنا موقفه لدى ذكرناه أنف من العاص من وائل السهمى حين ذكره أنه عبد الله بيده الطولى عليه إذ أجاره وحمه من التهذبة المحققة على يد رجل قريش ، فكان رده على ثناء الله عليه .

- لا جزاء الله خيراً ! ...

فلا رحمة عنده ولا تفكير فى رحمة لمن عادى الله وحارب دينه ! وسرى له مواقف أخرى من هذا القليل هى الدليل لقائم على أنه صار رجل العقيدة بتركيبته الحارة ، تسحره العقيدة فلا يستطيع لذلك عدلاً ولا صرفاً !

وها هما ميدان بطولته الجديد ، بحريطته النمسية الجديدة ...

وها لاند لنا من وقفة تتأمل فيها « الخريطة النمسية » الجديدة لعمر ، الذى قمع حيويته فى الفعل ، وإن لم يصادر حيويته فى الامفعال ! فهو بحكم تكويبه ذو طاقة خارقة كأب جوف بركان يأبى إلا أن يقذف بالحمم وقد انجذبت هذه الطاقة العارمة - بعد أن سدت فى وجهها مسافذ الفعل -

المورى الخامخ - إلى محل عمل الرأى وتعميق الإيمان بالقيمة لعبد التى
من ها ، ولا يطبق أن يراها فى غير مكائنها التى تليق بها فوق اجميع
وبدئ تحولت طاقته جميع إلى خدمة « ابدأ » بالرأى المتطرف فيه

« ورحل ابدأ المتطرف » هذا هو ما صار إليه عمر فى « حريرته
لنفسية الحديد » . فلم يعد - كم كان رجل مساوشت ومدرلات فردية .
بل هو أولا رجل رأى يريد للجميع أن يشاركوه فيه . وهو بطبع « النطل »
أن يكون متطرف لا يعرف فى ابدأ هوادة ولا مساومة

ولذا وحده فى هذه مرحلة - مرحلة النطل المطوع المروض - لا يكف
عن التطرف ولا عن حمل لآخريين على اتاع رأيه ، لا يستشئ من ذلك نبيه
وقائده ذلك أن عقيدته صارت لباب كياه كله . ولا يتصور لها وضعاً
دون الصدارة والسبادة المطلقة . حسبى بحسها هو ويعضب لكل
هاون فى هذا الأمر عضاً يملك عليه نفسه ولا يستطيع له كفا . قطعه
الطوقى يأبى له الهوادة والمصانعة

وهو بعد الترويض لم يصح بعد أداة طيعة تماماً ، فمزاحه المستقل
المتطرف يأبى عليه ذلك . وإذا اضطّر للانقياد عن غير اقتناع كان انقياده
تسليم من يقول :

- الله ورسوله أعلم !

فهو تسليم عيسى ، على خلاف ما يشهد به حسه وعقله تسليم فيه
إكراه للعقل ، وما أبعد هذا عن الاقتناع !

إلا أن عملية الترويض تستمر ، لتأخذ منه بعض ما فيه ، وتعطيه
بعض ما فيها ولكن عقله المستقل ، وطعمه المتطرف بطلان على
فرديتهما ، مع اردباد فى قنليته للادعان لقيادة عندما نصر على محالمة

والانصراف عن رأيه ، ليتم بذلك انضباطه الإيماني . . . لأن قضية الإيمان
صارت لباب كيانه ومحور تفكيره المستقل على كل حال . . .
ولسوف يؤوله ذلك بعد مرحلة « رجل الدولة » ، إلى أن يكون نمط
فريدا من الحاكمين . . .

وما يوم الحديبية بسر !

وسد هـ بكتب سيرة تطرد الكتابة فيها مع تعاقب الأحداث وتعاقب
 الأيام والتواريخ ، بل نحن نتعقب الملامح النفسية لذلك البطل المطبوع ،
 لصنع أيدينا على ما يؤيد رأينا أنه كان رائد مدرسة الرأي ، وأنه كان قد تم
 ترويضه لا لشخص - ولو كان السبي - بل للعقيدة نفسها ، حتى ركبته
 واستولت على مجموع نفسه فصار مطيتها ، أو انها ، أو أداتها . ما شئت
 قل ' فهي التي توحه حيث يرى أن ذلك أليق بها وبقدسيته المطلقة .
 ومن ثم تطرفه في الانتصار لها ، بكل المقاييس التي يملكها رجل من
 الشر لا يقيم لغير ذلك ورنا ، ولا يحسب لغير ذلك حسابا . . .

ولذا بذكره ما كان يوم صلح الحديبية ، وهو سابق في التاريخ كما
 ذكرناه من موقفه يوم وفاة عبد الله بن أبي بن سلول . ولكننا نفرده لذلك
 اليوم هذا الفصل ، لأنه بارز بالحمة للعقيدة من حيث هي قضية ،
 لا بالحمة والسخط على فرد من أعدائها . . .

وبرجع إلى ما كتبه ابن هشام ، فذكره ببعض الإيجاز :

كان رسول الله قد قصد مكة معتمرا وزائرا ، لا يريد حربا ، فلما
 سمعت قريش بذلك أبوا أن يدخل عليهم عنوة ، وكثرت رسلها إليه وهو
 يكرر على كل رسول نيتته ، ويرى الرسل الهدى التي أعدها لتكون
 أصحية ، فيرجع الرسول إلى قريش ، ليعثوا رسولا آخر وهم غير
 مصدقين ، يريدون مريدا من الاستيثاق والضمان ، إلى أن بعثوا إليه « عروة

اس مسعود الثقفى : فخرج حتى أتى رسول الله ، فجلس بين يديه ثم قال :

- يا محمد أجمعت أوشاب الناس ، ثم حثت بهم إلى ببصنتك
لنقصهم بهم . إنها قریش قد خرحت معها العود لنظفيل ، قد أسو حدود
سمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عموة أبدا . وأيم الله لكأى هؤلاء
وقد انكشفوا عنك غدا !

فسه أبو بكر ، وكان قاعدا حلف السبى قائلا :

- امصص بنظر اللات ! أنحن بكشف عنه ؟

ثم جاء عروة يتناول حبة رسول الله وهو يكلمه ولعبة من شعبة
واقف على رأس رسول الله فى الحديد ، فجعل يقرع يده إذا تناول حبة
رسول الله ويقول :

- اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا نصل إليك !

فيقول عروة :

- ويح ! ما أظطت وأعبطت !

فتسب رسول الله ، وقد عروة

- من هذا يا محمد ؟

قال :

- هد من حيث المعيرة من شعبة !

فقال :

- أى عذر (أي العادر) وهل عشت سوءتك إلا
بالأمس ؟ ! . .

وهذا السياق الدرامي يحسم الجحوى المتوتر بين قريش والمسلمين في الحديبية ، وتحفز المسلمين وقد لبسوا الحديد وارتدوا كل الأهبة لدخول مكة عنوة إن لزم الأمر . .

وانصرف عروة وقد أكد له النبى ما جاء له ، ثم يروى ابن إسحق عن بعض أهل العلم « إن رسول الله دعا « خراش بن أمية الخزاعى » فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له الثعلب ، ليبلغ اشرافهم ما جاء له ، فعقروا (ذبحوا) به جل رسول الله ، وأرادوا قتله ، فمنعته الاحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله (راجلا) وهو إمامان من قريش في العجبية والتحدى ، زاد المسلمين غيظا وتحفزا واصرارا . . .

وبرواية مرفوعة السند إلى ابن عباس يقول ابن اسحق :

« إن قريشا كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين وأمرهم أن يطبقوا بمعسكر المسلمين ، ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا ، فأخذوا أحدا . فأتى بهم رسول الله فعفا عنهم وخلق سبيلهم . وقد كانوا رموا عسكر رسول الله بالحجارة والنبل . . .

وهو عدوان أو إصرار على العدوان من جانب قريش ، فأراد النبى أن يزيد في طمأنينتهم ، يقول ابن هشام : « فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إلى مكة » ولسفارة كما ذكرنا كانت من مهامه في الجاهلية فيبلغ عنه اشراف قريش ما جاء له ، فقال :

- يا رسول الله ! . . . لقد عرفت قريش عداوتى لها وغلظتى عليها ، ولا آمنهم على نفسى ، وليس فيها من يحمينى منهم ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان !

فدعا رسول الله عثمان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب . « وانه انما جاء زائرا للبيت العتيق » .

وهنا نجد عمر قد صدق الرأي في نفسه ، وصدق النصيح لنيبه ، فهو أدرى الناس بما فيه من غلظة طبع ، لا تصلح لبث الطمأنينة في نفوس أعداء متشككين .

واحتبست قريش عثماني ، أشبه بالرهينة ، فبلغ النبي أنه قتل ، وعبدته - كما يقول ابن اسحق :

« قال النبي : لا نرح حتى نقاتل القوم ! »

ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة لم يبايعهم رسول الله على الموت ، بل ديعهم على ألا يفروا فبايع الناس جميعا إلا واحدا هو الجند بن قيس ، ثم أتى رسول الله أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل .

« ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى النبي » ، قالوا له :

- انت محمد فصالحه . ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا . فوالله لا تحدث العرب عما أنه دخلها علينا عنوة أبدا . . .

« . . . وتكلم سهيل فأطال الكلام ، وتراجعا ، ثم جرى بينهما الصلح . . الصلح » هذا أمر شديد الوقع في هذا الموقف على المسلمين . فناهيك إذن بعمر بن الخطاب !

يقول ابن اسحق :

« فلما أتم الأمر ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال :

- يا أبا بكر ! أليس رسول الله ؟

قال :

- بلى !

قال عمر :

- أو لست بالمسلمين ؟

قال - بلى !

قال عمر :

- أو ليسوا بالمشركين ؟

قال :

- بلى !

قال عمر

- فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟

قال أبو بكر :

- يا عمر ! الهم عرره ! فاني أشهد أنه رسول الله

قال عمر :

- وإن أشهد أنه رسول الله !

ولم يشف أبو بكر عليل عمر ، فذهب إلى « صاحب الشأن » الأصلي

نفسه .

يقول ابن اسحق :

ثم أتى عمر رسول الله فقال له .

- يا رسول الله ! أأنت برسول الله ؟

قال :

- بلى !

قال عمر :

- أولسنا بالمسلمين ؟

قال :

- بلى !

قال عمر :

- أوليسوا بالمشركين ؟

قال :

- بلى !

قال عمر :

- فعلام يعطى الذببة في ديسا ؟

قال :

- أنا عبد الله ورسوله لن أحالف أمره ولن يصيغني !

وعندها رضى عمر ! رضى لا عن اقتناع ، بل عن إذعان فلم تزل
مسه ثائرة بالسخط ، ولن تزل ، حتى بعد كتابة عهد الهدنة . فقد حسم
النبي الأمر حين قال له :

- أنا عبد الله ورسوله ، ولن أحالف أمره !

إبه أمر إلهي بدل ! وما دام يشهد أن محمد رسول الله ، فلا مفر من
لتسليم والادعان . وإن بقيت في نفسه على المشركين موجدة أشد
فلعهد مصون بالأمر الإلهي أما الرضا عن مهادنتهم فحاشا !

وما ها عمر بأكمله بما هو رجل لرأى المستقل ، وبطل العقدة التي
« تقمصه » وتقمصته ، ولسها ولسته ، حتى صارت من وراء دفعات
حياته الجبارة بأسرها .

وللهي عده أن تكون كلمة عقيدته هي العليا ، وأن يكون المؤمنون
بها هم الأعلى . أما أن يكون من شروط هذه الهدنة غير المضمومة :
« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصططحا
على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف
بعضهم عن بعض » .

إلى ها هنا والأمر قد يحتمل ، أما ما يلي هذا :

« على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم
ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ! . . . » .

هذا يكون المسلمون - في إحساس عمر ، وكل مسلم به عبرة وحمية -
قد أعطوا الدية في دينهم ، ورضوا بالصميم والحسب ! ودون هذا عند من
كان كعمر تحر الخيال الرواسي ضعفاً !

هاهنا تناقض يؤدي منطق عمر ، ذلك المنطق الذي لبس العقيدة
ولسته العقيدة ، مضار لا يعمل إلا بها ولها . ولا يمكن أن تفسره أساب
يقبلها عقده ، فنار لعقله البقط المستقل وإليائه ، وراح يواحه بتلك الأسئلة
المطقية صاحب الرسالة نفسه ، ويكرر عليه السؤال الصحيم الذي يكاد
ينفجر به رأسه :

- لماذا ؟

وهو يكن هناك أي سبب موضوعي يمكن أن يفسر هذا الموقف أو هذه
الهدنة بشروطها الطاهرة الاححاف . ولم يسكت عمر عن الصراخ بسؤاله
الناثر : « لماذا ؟ لماذا ؟ » ، إلا عندما قال له سببه أن السبب ليس من مستوى
المنطق الشرعي ، بل هو أمر إلهي !

لا حيلة في هذا الأمر إذن . وإن بقيت طبيعة الظل الذي لا يقبل
الصميم تنقبت على مثل الحمر

ولكن المرارة والاحباط لم يضرقا وجدان عمر ورادهما نقادا أن تطبيق هذه الشروط لمجحفة بدأ على الفور في صورة مفاجئة مأسوية ، يروها اس هشام :

« فيينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ، إذ جاء أبو جندل ، وهو اس سهيل بن عمرو ، يرسف في الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون في الفتح ، لرؤيا رآها رسول الله ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرحوع ، وما تحمل عليه رسول الله في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ! فلما رأى سهيل بن عمرو اسه أبا جندل قام إليه فضرب وجهه ، وأخذ تتليبيه ، ثم قل :

- يا محمد ! قد لحت (نمت) القضية بنى وبينك قبل أن يأتيك هذا (مستنجدا بك) . فقال النبی :

- صدقت !

فجعل سهيل ينترابه أبا جندل (يجده جذبا شديدا) تتليبيه ، ويحبه ليرده إلى قريش . وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته :

- يا معشر المسلمين ! أأرد إلى المشركين يفتنوني عن دى ؟
فأرد ذلك الناس إلى ما هم (من الغم) فقال رسول الله

- يا أبا حندل ! اصبر واحتسب ! فإن الله حاعل لك ولم معك من المستضعفين فرحا ومخرجا ! انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيأهم على ذلك وأعطينا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم ! »

ولم يطق عمر صبرا . أجل انه لا يستطيع ان يخرج على ما أمر الله به بيه ، ولكن النار المتقدة في داحيه كالبركان لا بد أن نلتمس لها مخرجا ، بالدوران ما أمكن حول هذا « العهد » المرم له وللمسلمين ، محررا لا يكون فيه غدر أو حرق للميثاق

يقول بن هشام في أحقاب دلت :

« فوثب عمر بن الخطاب مع نبي حيدر بعثني في حربه (وأبوه سيحس
أس عمره يسوقه نحو مكة) ويقول له

اصبر يا أبا حنبل ، فإني هم المشركون ! وإني دم أحدهم كدم
كلب !

يقول دلت وهو يدني قائم سيفه منه ويقول عمر

- رحوت أن يأخذ السيف فيصرب به أباة ! فصل الرجل رأسه ،
ونفذت القضية !

فلت هـ ، لا يسلكه إلا عمر ، لدى يهدر ما يدح من نفسه من
الحمية والاحاطة وعبرة عن « القضية » التي صارت هي كل حياته كم يهدر
البراكين .

فهدد التقمص لروح العقيدة هو لدى في وحده كل حساب إلا
علاء كدنها وسطها ، حتى عد دم الأب امشرك عده لا يريد في قيمته
عن دم كلب ...

وهو حقيق أن يلعبنا إلى ملحظ يؤكد ما قلناه عن ستيلاء العقيدة على
كل نفسه ، حتى صار تتكوينه البري أداه له ، بحيث تصطبغ تصورات
ها بطبعة التميز ، فهي وحده كل شيء ، وكل ما عداها لا شيء

تصور عمرى . ومسك عمرى ، من عمر الرجل دى المراح الحاد
المحتدم ، ومن عمر السط الذي يأتي حواريق الأفعار وهو يرها من
بدائه الأمور .

ولست أظن هـ يتمق مع ما جاء في سورة لقمن مثلاً ، عن معاملة
الاناء المشركين :

وإن حداثتي على أن تشركني ما ليس لك به عدم ، فلا تطعني
وصاحبيها في الدنيا معروفا ! . .

ولكنه عمر ، هندسية العقيدة بطلقة عده ، جعلته يأسف لأمر الفتى
صن يدم أبيه ، ولم يره كدم كلب !

لو كان في مكانه كان صن أبيه ، أو يتردد في أمره !

هذه نصيحة الدرية انى لا ترى الدنيا وما فيها إلا بمطار واحد ، هـ
مطار العقيدة التى لبسته ولسها ، وصارت محرك كتابه لوحيد ، هى يعيها
التى تفسر لنا موقفه لحظة قبل ان محمدا قد مات

حتى فاسون الطبيعة ، وهو الموت لكل حى ، لم يكن له ورن أدم
حاسته المتطرفة هذه العقيدة ، فأبى أن يتصور - محرد تصور - أن نرى هذه
العقيدة يمكن أن يموت كما يموت سائر الناس

ولست أوافق من يقول أن عقل عمر عاب عنه فى تلك اللحظة ، بل
أقول أن طبيعته التى صارت آلة جبارة لإيماه ، لا تقيس الأمور إلا بمقياس
قيمه وفوته المطلقة - فمقام عقيدته عنده أن نبيا « ليس معقولا » بمنطور
هذه العقيدة المطلقة المكاة والسلطان ، ان يجرى عليه ما يجرى على سائر
الناس !

يقول ابن اسحق برواية مرفوعة إلى أبى هريرة :

قام عمر بن الخطاب فى الناس فقال :

« ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قد توفى . وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات ! ولكنه ذهب إلى ربه
كما ذهب موسى بن عمران ، فقد عاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع
إليهم بعد أن قيل قد مات ! ووالله ليرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم

عمر رجع موسى ، فليقطع أبدي رجال وأرجهم رعموا أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد مات !

وحده استقد بأن عقيدته هي قانون الكون الأعلى ، الذي لا يخضع
لأي حدود أو قيود وأبدي محص به كل الحقائق بلا استثناء ، هو الذي جعله
يقول أن في ساء موت النبي « دسيسة » من المنافقين ، وكان ذلك كافيا كي
يثور تلك الثورة العمرية . . .

ولكن أما بكر ، بطيعة الواقعية ، وتفكيره العملي أقبل - كما يقول ابن
هشام برواية أبي هريرة :

« أقبل حتى نزل على باب المسجد ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت
إلى شيء ، حتى دخل على رسول الله . . . ثم خرج وعمر يكلم الناس ،
فقال :

- على رسلك يا عمر ! انصت !

فأبى عمر إلا أن يتكلم . . .

أليست ثورة غضب عمرية ؟

فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه
أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه . . ثم قال :

- أيها الناس ! إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان
يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

ثم تلا هذه الآية :

- وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل
انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ،
وسيجزى الله الشاكرين . . .

ثم يروى أبو هريرة عن عمر أنه قال

« والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعمرت ، حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رحلاى . . . وعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات !

هنا أيضا كل تكوين عمر القد ، الذى لا يرى إلا أن إيمانه قانون الكون لأعلى ، الذى يخضع له كل قانون ، حتى قانون الموت

فسارع من العبرة وانغصب لهذا القانون رفض فكرة موت محمد . أم وقد ذكر أبو بكر السمت تلك الآية ، وإيمانه بحسه أرغمه على التسليم بأن محمد لا يد ميت كما يموت كل حى

وأبقى نفسه يسقط من الإيمان على المستوى المطلق على الصريقة العمرية ، إلى الإيمان على المستوى الواقعى المردم نص القول الإلهى .

وهو سقوط من شفق المثالية ، إلى أرض الواقع عبر عنه تكوينه تعبيرا حديدا مدببا وقوفا هبكنه الحمار على الأرض حرقيا ، « فما تحمله رجلاه ! » .

وأدرك عمر هذ الوقوع أنه دخل مرحلة جديدة ، بحيث أن يحشد فيها قواه الحارقة كلها لبصرة هذا الإيمان ، الذى رادت مسئولته عنه بانقطاع خبر السماء .

لا لا أمر إلهى فى وقت معيه كما كان حال يوم احديبية . الآن لم يبق إلا قانون الإيمان لوردد فى القرب وعلى ولى الأمر أن يحسن تكييف الحكمه بمقتضاه على الوقائع المعية التى تسجد

هنا هنا بدأت مرحلة مسئولية لكرمه للقاءه على عاتق رجال دوله الإسلامية .

وأول ما تحتاج إليه لدوله فى هذه اللحظة ، هو اختيار « ولى الأمر » الذى تسند إليه مقادير مسئولية الدولة . « وفاة أسى

وكان يوم السقيفة الذى نازع فيه الأنصار المهاجرين ، ثم مالوا إلى اتساع السلطة معهم ، فقالوا « منا أمير ومنكم أمير » . . . وحسم أبو بكر الموقف حين قال لهم : ما الأمراء ومنكم الورياء ، فليس تدين العرب الا لهذا الخي من قريش !

ضبط أبو بكر الموقف ، وردده إلى نصابه ومن أقدر من أبى بكر على سياسة الأمور ، وله هذه الحكمة ، وهذه الكياسة ، وهذا الحرم ؟ انتهى الأمر بأن سيط أبو بكر يده فبايعه عمر ، وبايعه أبو عبيدة ، وأقل الأنصار أنفسهم على السبعة ، مع المهاجرين

وتنص عمر الصعداء فقد تمت البيعة لأبى بكر . وصار في موضع مسئولية الأولى صارت المهمة الأولى التى شعر بها عمر هى دعم أبى بكر وأول دعم فى هذه الأيام الأولى إنما يكون بالتمكين لمكانته وسلطته ، كى تعدو محل اتفاق تام شامل بين وحوه المسلمين وهم أصحاب السى ، فلا يشد عنها أحد . فإن يدرب من أحد مدرة شقاق فى سلطة أبى بكر ، فذلك كاف لاستثارة كوامن العنف فى عمر ، فالموقف يحاحه إلى الخزم . وحده استنق بأشد القسوة ، لأن السلطة العليا سبى ألا يكون موضع خلاف .

وكان على مشغولا أثناء اجتماع « السقيفة » بتجهيز السبى أليس ابن عمه ، ومريه ، وواحد روحته ، وحده أسائه ؟

ويروى الرواة ان عمه العباس حفره على أن يدبر بائسات حقه فى ولايه لأمر ، وعنف عليه حتى أئذره إن لم يفعل « ليكون عبد العصا ! » وبكر أنا احسن استنكر واستنكر أن يدع تجهيز السبى لأى شأن من الشؤون فلما بايع الناس أن بكر ، اعتصم بيته مع فاطمة الزهراء ، ولم يبايع

حل إنه لم يصب إلى أحد ن يبايعه ، ولكنه موقف قد يدعو الناس

إلى النكول عن بيعة أبى بكر ، وهى فرصة للمنافقين كى يوسعوا شقة الخلاف فى جبهة المسلمين فى هذا الظرف الحرج .

وأدرك عمر حساسية المسألة ، وانبرى لها بطبعه الحاد الذى لا يعرف اللين ، بل هو طبع درى إذا استثير كان كالركان . فذهب إلى دار على وفاطمة ، وصاح أمام الدار بصوته الجمهورى القاصف كالرعد ، وهو فى ذروة الغضب ، يتوعده لئن لم يخرج ويباع أبى بكر على ملأ من الناس فى المسجد ، ليحرقن عليه الدار !

موقف عنيف غاية العنف ، ومع من ؟ مع والد حفيدى النبى الوحيدين ، الحسن والحسين ، اللذين كانا يركبان ظهره وهو ساجد . فلا ينهض من سجوده حتى لا يعجلهما عن النزول !! . .

ولكن صحامة وضع على ، رأس آل البيت ، هو الذى يكمن فيه الخطر أكبر الخطر على « مصلحة الدولة العليا » كما نقول نحن فى هذه الأيام ، باثارة الفرقة على مسند « الرئاسة العليا » ، فيفطر عقد الدولة ، فتكون نهاية الدولة الإسلامية ، هذه الدولة التى صارت بعد وفاة النبى أمانة فى أعناق أصحابه .

جسامة هذا الخطر ، خطورة صاحب هذا الموقع ، هما التبرير الكافى ، بل الدافع الذى تجلئ لبديهة عمر الملهمة أنه يحتاج إلى الخصم بلا هوادة . وإذا استقر الأمر لأبى بكر فى المدينة ، دخل دور أبى بكر مرحلة جديدة ، غير مرحلة التمكين وجمع الكلمة ، هى مرحلة الحياطة والصيانة اليقظة . وهى مرحلة صدق أبو الطيب فى تصريحها بعد قرون .

« الرأى » قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى ! فلازم أبى بكر ملازمة المشير ، الذى يدرك أن « التصرف » اسديد هو الذى حل الآن محل « الوعى » فى كل ما يستجد من المواقف . أجل هناك

الكتاب والنسبة . ولكن الشأن فيها شأن كل ما هو « مبدأ كل أو قانون عام » لاسد عند استلزامه للتطبيق على المواقف والأحداث الجزئية من « التصرف السديد » الذى يراعى الظروف والملايسات .

وأبو بكر لم يتوان فى إعلان سياسته التى تتفق وطبيعته : إنه « متبع لا مبتدع » . . . فالزم ما يلزمه ، وأحوج ما يحتاج إليه ، هو العقل « المبدع » ، المتصرف ، النابع فى آرائه عن التشع التام بالمبدأ أو القانون أو العقيدة ، فهو قد تشبع بروحها ، ويتصرف فى تأويلها من جهة هذا الروح ، وعلى النحو الذى لا يتصور أن ثمة ما هو أليق بتلك العقيدة وما هو أكرم لها منه .

ورائده وهو فى موضع « المسئولية الثانية » هو الحرص قبل كل شىء على « عدم تصدع » الدولة بعد وفاة النبى .

وهنا يرى فى عمر « الجبار » صورة قد يراها غير المتدبر غريبة على جبروته وعملانيته ، هى « التضامن » الشديد لرئيس الدولة ، مع بذل غاية جهده فى النصح له بما يترأى لعقله الابداعى من رأى ، تاركا له القرار . فالمسئولية الأولى والنهائية له دائما .

لذا عندما تشدد أبو بكر فى مسألة الزكاة ، عرض عليه « رأى الآخر » ، وهو « التساهل » فلم تعد دولة الاسلام مؤيدة بالوحي وبالنبى ، فلتئ كانت القبائل لا نجد غضاضة فى أداء الزكاة للنبى شخصيا ، فهم يرونها أشبه بالإتاوة إذ يؤدونها لابن أبى قحافة ! فهو يخشى أن ينفرد أمر الدولة لهذا السبب فينضم من يرفضون الزكاة إلى من ارتدوا عن الاسلام حملة ، فيرند معظم القبائل ، ويتسع الخرق على الراق . . .

وها هنا نرى منظرا عجبا ! نرى أبا بكر القصير النحيل الأجنا (أى المنحنى الظهر بعض الشىء) يشب إلى أعلى كى يتعلق بلحية العملاق عمر بن الخطاب ، ويشدد فى سبه :

- ثكلتك أمك يا بن الخطاب ! أجتار في الجاهلية وخوار في الإسلام !

فلا يغضب عمر الغضوب ، ولو غضب لكنت بطشة واحدة من يده
كافية للقضاء على الشيخ النحيل القصير . كلا ! لم يغضب بل تطامن له
تطامن الجمل المائل يحمره من خطامه صبي صغير ! ..

أين ذهب جبروت هذا الجبار ؟ وأين ذهب طبعه الناري ؟ وكيف اجتراً
عليه أبو بكر هذا الاجتراء ، وهو آمن من بطشه أو تغير قلبه منه ؟

أسئلة تحتاج منا إلى وقفة تأمل ، نتمهم فيها هاتين النفسيتين ، تفهما
يزيدنا معرفة بالنفس البشرية عموماً ، ولا سيما في هذه الطبقة من ذوى
الهمة والمصاء وما يكون بينهم من تفاهم تلقائى خفى .

ونبدأ بجبروت عمر ، والتساؤل عنه أين ذهب في مثل هذا الموقف ؟

الحق أن شيئاً طغى على جبروته ، واحتل الصدارة في نفسه ، ألا وهو
الشعور بفداحة المسؤولية عن الدولة الإسلامية التى بدأت تمب عليها رياح
المخاطر الموحشة من كافة أطرافها . ولو طاول طبعه الناري الأصيل ،
لكانت استجابة التلقائية إعصاراً من الغضب والحمية والأنفة أن يستصغروا
شأن صاحبه وشأنه بعد وفاة النبي ولو لقي في هذا السبيل حتفه ، إلا أن
شعوره بالمسؤولية التى تنوء بها الجبال عن « سلامة الدولة » باى ثم ،
رجحت كفتها على كفة جبروته وطبعه الناري . فالأمر هنا ليس أمر كرامة
شخصية وعصبية ، بل أمر « سلامة نراث محمد » الذى صار أمانة فى
أعناق المسلمين من أصحاب النبي ، لذ عرض على الخليفة « الراى
الأخر » ، كى لا يغيب عن نظره وهو يتخذ القرار . ولذا توارى « طبعه
الناري » إكباراً منه لهذه المسؤولية ، مدركا أن « صديقك من صدقك لا من
صدقك أو سايرك » . . . ورأى أبا بكر متشدداً ، فقام هو بدور
« المتساهل » .

أما كيف اجترأ أبو بكر ، وهو القزم النحيل بالقياس إلى هذا العملاق ، فها هنا ملحظ غاية في الطرافة عن ضخامة الثقة بالود والصدقة المحلصة التي يحس أبو بكر بها إزاء عمر . إنها ثقة تتحمل أشد العنف فلا تهتز .

وكان أبو بكر منذ البداية واثقا من أن له هذه الدالة على عمر ، فنراه في الأيام الأولى ، عندما طلب أجلة الصحابة ومشيختهم ولا سيما الانصار منهم من عمر ان يذهب إلى أبي بكر ويبلغه رسالة منهم ، إن كان مصرا على إنفاذ هذه السرية إلى تحوم الروم ان « بولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة بن زيد الذى لم يكن قد بلغ العشرين من عمره بعد » وما كاد عمر يبلغ هذه الرسالة - وما على الرسول إلا البلاغ - حتى شده أبو بكر من لحيته (وهو الدعامة الكبرى في بيعته بالأمس فقط !) وقال له :

- ثكلتك أمك (عدمتك) يا بن الخطاب ! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أنزعه !

إنها الخشونة الظاهرة في التعامل منذ البداية ، وهى خشونة أدل على الدالة ورفع الكلفة ومنتهى الثقة بمتانة الصداقة من كل تلمظ ومحملة . فقد يكون التلمظ فى الكلام دليل حذر وخشية لنتائج الخشونة لدى اطراف الآخر . أما فى بيئة البداوة ، فأحرى أن تكون الملاحظة والتلمظ دليل « توجس » من « عدو فى ثياب صديق » . . .

ونحن نرى بين « أبناء البلد » أمثال هذه الخشونة فى القول والاشارة ، عند تجاوز امودة بينهم لمراسم الشكليات التى توجب تبادل لتقدير . بل قد يكون شىء من القول الجارح أدل على « الأخوة » من كل ثناء .

كان أبو بكر يفهم ويعرف جيدا مكانته عند عمر ، وضخامة « رصيده » عنده ، بحيث لا يتأثر هذا الرصيد بأى مقدار يسحبه منه !

لكن ما أن بسجد أبو بكر قراره ، حتى يكون عمر أشد العملين على بعده ، وأعف المدرسين إلى عقاب من يخرج عليه . . .

وهكذا كان اختلاف طبع عمر من طبع أبي بكر ، وكان اختلاف منهج عمر الإداعي ، المتصرف ، عن منهج أبي بكر ، المتبع ، عضدا وسدا لأبي بكر وعونا له ، لا تقويضا لمضائه وفتا في عضده .

حتى ما كان من أمر خالد بن لوئيد ، حين طهر بمالك بن نويرة مع ما قيل من إسلامه وقتله ، وتزوج بمرأته على الفور ، فأثار ذلك عصب قريبه عمر من الخطأ ، وراه عدوانا واستغلالا نفود فاحشا ، ولم ير أبو بكر ما يدعوا لأعماد سيف سله الله ، فلم يعزل خالدًا ولم يحاكمه ولم يفرق بينه وبين امرأة مالك بن نويرة كما يريد عمر

وكان عمر عبيما في سخطه على خالد ، وهجم عليه وهو داخل إن حصره الخليفة ، فرع السهام التي يربس بها عمامته وكسرها وهو يندد على ملا من الناس بخيلائه ، ويأنه لم يكفه أن قتل امرأة مسلما حتى نرا على امرأته !

ولم يقتنع بما كان من هوادة أبي بكر ، واكتفائه بأداء دية مالك بن نويرة ، ثم رد السبي ، ثم أعاد خالدًا إلى تمام حروبه ضد المرتدين وظل عمر يلح على أبي بكر في عزله ، إلى أن أمره أبو بكر أن يكف عنه . ولكن غضب عمر لم يسكن ، وظل يندد في مجالسه بخالد ، ويفتى بأنه يستحق الرجم على الزنا . . .

وقد قبل أن عمر كان يعار من خالد في سريره ، أو لاشعوره ، كما نقول نحن بلغة هذه الأيام . ولنا برى بشرا معصوما كل العصمة من نوازع الغيرة ، والغيرة بين ذوى القربى معهودة شائعة ، وهي بين الإخوة قد تكون أشد ما يمكن . وحالد من أحوال عمر - لأنه من بنى محزوم - وهو

أيضا ابن عم أمه حنتمة. ولكننا لا نلجأ إلى تفسير موقفه بالغيرة، ولا نجد تفسيراً طبيعياً آخر لهذه الشدة العمرية في أمر خالد .

عرفنا أننا أن عمر بن الخطاب رجل مبدأ ، والعقيدة هي هذا المبدأ الذي يراه قانون الكون الأعلى . وهو يغار عليه بكل حميته ويغضب أن يمسه ماس ، أيا كان هذا الماس ! وسرى أن هذه طبيعته عندما يرتقى إلى « المسؤولية الأولى » فيهدد جادا كل الجدد بعض الصحابة بالقتل ، ان قالوا ان الخمر حلال ! ويقتص من قواده وعياله كما يقتص من العامة ، لأن الناس جميعا في هذه العقيدة سواسية كأسنان المشط . فهو لا يقبل فيها عدلا ولا تعديلا ولا تساهلا ولا صرفا . فلا أحد يند عن سلطان هذا الدين . وهو يرى أن « غلطة الأمير بلقاء مشهورة » ، فالقصاص منه أولى من القصاص من غيره ، لأن المناصب تكليف لا تشریف ، وأكرمكم عند الله اتقاكم ، لا أوجهكم واقواكم !

ما عرفناه من نفسية عمر يجعلنا نوقن أن غضبه على خالد ثمرة طبيعية لطبعه وتقديسه لعقيدته . وفي مثل هذا الموقف لا ينقاد عمر لأبي بكر . بل يرى الصواب في جانب غضبه لله ولدين الله . فهو اذن ليس غضبا على خالد أساسا ، بل غضبه عليه فرع عن غضبه لله ودينه ! وهو ليس غيرة من خالد ، لأن غيرة عمر الصادرة صدورا طبيعيا جدا من طبيعته وطبعه إنما هي غيرة على العقيدة ، لا من شخص أيا كان .

وظل هذا رايه ، وإن ترك المسؤولية لصاحب المسؤولية الأولى ، إلى أن تولى الخلافة فكان أول ما صنعه عزل خالد عن القيادة العامة !

ولم يختلف الرجال إلا في هذا الأمر ، لأنه اختلاف الرؤيتين والنفسيتين ، في مسألة لا يمكن أن يساهل فيها عمر المتطرف في إيمانه وغيرته عليه . . . فإن شئت قل انه « مثالي » في إيمانه ، وإن أبا بكر عملي في تطبيق هذا الايمان . . .

أجل إن الشعور بالمسئولية ، وبالصراع الذى تركه النبى ، هما اللذان جعلتا عمر يهاجم مثاليته قليلا حين نصح بالتساهل فى أمر الزكاة . فى نفس بقاء أولئك الناس على إسلامهم سائر أركانهم . أما فى أمر يتعلق بتصميم مسئولية القائد العسكرى ، مثل قتل من أعين إسلامه ، ولرواح بامراته ولم يحف دم زوجها ، فمسألة لا تفسر على أنها تساهل مع جماعة أو قبيلة نريد أن نساوم ، فى وقت ارتدت فيه قبائل كثيرة فطرحنا الإسلام جملة ، بل تفسر على أنها « التواء » بشرع الله عندما يستهك دوقوة وبأس شديد . فنداس قدسية الدين الذى سوى بين الناس ، ويصح الشرع نافذا على الصعفاء محسب ، وتصح القوة هى الحق . وذلك ما كان عليه أمر الجاهلية ، فكأنها ارتدت أمر الحكم الإسلامى إلى الجاهلية بهذه التفرقة ! إنه الإسلام بالاسم محسب إذن ، وفيما الجاهلية تحت قناعه ، إذ أن معيار القيم عند الناس هو ما يمسهم منها عند تطبيقها وذلك هو البلاء الذى لا يمكن أن يسكت عليه عمر . عمر الذى يطق الشرع على الأقوياء قبل الصعفاء ، وإلا عد نفسه ديبا حسيما ، يستضعف الصعفاء ، ويتحامي إعصاب دوى السلطان ! وما هكذا نفسية لبطل !

من ها هنا تبدأ البذرة النفسية لبطل لدى سيصبح المثل السائر على الدهر فى بطولة العدل ، والعفة والتشرف وإذلال فتنة لسلطان .

من البطل إلى المثل

« فليبدأ الامام بتعليم نفسه قبل
تعليم الناس . فنحن نعلم
الناس بأفعالنا أكثر مما نعلمهم
بأقوالنا . ومؤدب نفسه أولى
بالاجلال من مؤدب غيره »

عن علي بن أبي طالب

الجهاد الأكبر

ذلك القول الجليل لعلي بن أبي طالب ، ليس اختراعا لمنهج لم يسبق إليه ، ولكنه تعبير بليغ عن حكمة أبدية عرفها عظماء الشر من قبل . . . ومن عظماء الشر ولا مراء ، بطلنا عمر ، وإن له في نبيه لأسوة . يوم فتح مكة ، ورآه أبو بكر يأخذ بالعناء والشظف فقال له ، هلا حيفت على نفسك بعض هذا وقد تم الفتح ، فأجابه النبي :
- لقد انتهينا من الجهاد الأصغر ، ولنبدأ الجهاد الأكبر .

والجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، أي النفس الدنيا بنوارعها وشهواتها الذاتية الجزئية ، ومن أعظمها ضراوة « فتنة السلطان » .

وهاهو عمر بن الخطاب قد ارتقى إلى المكانة التي ليس فوقه فيها أحد بعد موت صاحبيه - إلا الله . فما عسى أن يصنع بها وفيها البطل المطبوع ؟ قلنا آنفا أن بين البطل والوعد شعرة ، هي « المطرة الخلقية » المركوزة في الذات العليا ، وهذه المطرة تجعل للعدل الموصوعى الكلمة العليا على النوازع الذاتية . أما الوعد فيمتن بقوته ، ولا يجد وازعا من فطرة خلقية فيه ، فيتهالك على الطغيان والبغى .

وقلنا آنفا أيضا أن في عمر هذه المطرة الخلقية منذ نشأته ، وقبل اسلامه ، وإن ذلك ما جعله يدرك قيمة « المعسكر الآخر » وإنه أليق به ، فدخله بطبعه الطولى . وهاهو اليوم أحوج ما يكون إلى بطولته المطبوعة ، وهو على قمة السلطة العليا .

وحليق بما أن سأل : ماذا يجدر بيطل مطبوع مثل عمر - ان كان له مثل :- ان يفكر فيه أو يجنح إليه في الوهلة الأولى ؟

أول ما يجنح إليه هو البيقطة لنفسه . فقد حبرها من قبل نفسا قوية لنوارع ، وغمس طويلا من قبل بترويضها واصطاطها في مدرسة سنوات المحنة والاضطهاد .

- في صبر كظيم - بمكة ، حين كان مع المسلمين معويين على أمرهم .

ولكن الحال اليوم مختلف جدا ، اختلاف النقبض من النقبض !
ففي سنوات المحنة كان كطيا معلوبا على أمره ، وفي صحة السبي ثم أنى بكر كان « منضبطا » يبدى رأيه المستقل ، ويلح فيه ، ولكنه يترجم بقرار القيادة العليا متى صدر . . .

أما اليوم فهو « القيادة العليا » التي ليس فوقها من دور الله أحد .
فالانضباط ها من نوع مختلف تماما . إنه الانضباط لسلطان الله ، واستنهام القرارات العليا لنافذة من ذلك الافق . بقوة الايمان وقوة العقل .

فأول سؤال كان عمر عيا أن يسأله نفسه وهو على تلك « الغمة » الشاهقة :

- أي الناس أنا اليوم ؟ وأي نوع من السلطان سنطاني هذا ؟
ولو لم يكن بطلا بطبعه ، أي لو كان جبارا وغدا كغيره من الجبابرة الاوغاد الذين يردحم بهم تاريخ البشرية ، لما احتج إلى هذا السؤال ، ولم ساوره شك في أن هذا السلطان له وحده بصمته الذاتية ، يصرفه عن ما بهوى ويشتهى ، والسلطان فتنة لصاحبه أي فتنة !

بل يرى عمر بن الخطاب - وهو البطل المطبوع - يشعله هذا التحديد
بوضعه هذا فوق سائر المسلمين في الدولة الإسلامية . فهذا هو الطبرى
يقول :

حدثني الحارث ، قال : حدثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن
عمر قال : حدثني فيس بن الربيع ، بإسناده لثقات ، عن صاحب رسول
الله سليمان الفرسى إن عمر قال له (أى قال لسليمان الفارسى الذى طوف
ببلاد كثيرة خبر نظم لحكم فيها قل حضره إلى جزيرة العرب ، وقل
اسلامه) :

- أملك أنا أم خليفه ؟ ! -

وهو سؤال دال بداته على اهتمام عمر بانفصل والتحديد التامير الكنه
وضعه ودوره الحديد ، وهو الحاكم الأعلى لدولة المسلمين ، التى صدرت في
عهده أكر إمبراطورية على وجه الأرض ، شملت إمبراطوريتى الفرس
الروم -

- أملك أنا أم خليفه ؟ !

وقد وجه السؤال إلى أعلم من يعرفهم عمر بالحكومات وبأحوال الملوك
عن حرة ومشاهدة ولا ينيلك مثل حبير ! ولذا قل له ذلك الحبير
- إن أنت جئت من أرض المسمين درهما أو أقل أو أكثر ، ثم وصعت
في غير حقه ، فأنت ملك غير خليفة !
ويقول سليمان معقبا على ذلك .

- فاستعبر عمر ! ...

وعمر إنما استعبر ، لأنه من الأصل طلب العبرة وسمى إليها .
بحك القضية كلها ، بين الملك والخلافة ، في كلمات ثلاث . « في غير
حقه » ...

ولئن تكلم سلمون - طيف لتصوره ورؤيته - عن شئون المال وما يحكى من
أرض المسلمين ، فإن عمر بذهنه لتوقد خبيق أن يخرج بهذا المبدأ من
البطاق الحرثى المحدود - بطاق المال - إلى النطق الكلى الذى يتعين به كل
ما هو حق ، ويباين كل ما هو « فى غير حقه »

لقد استقر « المبدأ » فى نفسه ، فانتابه الذعر من أن يكون ملكا ، بنفق
من أموال الناس درهما « فى غير حقه » ، أى على نفسه ، ومتعته ، ومجلسه
وزينته ومواكبه ومساكنه حتى لقد أشفق عليه كثيرون من تطبيقه على
نفسه وهو صاحب المسئولية الأولى ، وه الحاكم الأعلى « فى أمور الدين
والدين ، لما رآه زاد فى نسكه ونقشفه عما كان عنه وهو ثالث ثلاثة ، وثانى
اثنين ، فقال عمر مستنكرا ذلك القوم من أصحابه :

- أفألقى الله ملكا خائنا ؟ !

وهنا موضع التأمل فى تصويره لوضعه الفذ إن من سلك مسلك
الملوك ، فى متعة نفسه وأهله وزينته وخيلائه وركوبه أكتاف الناس ، إنما
يصرف سبطانه « فى غير حقه » ، فهو إذن خائن . لأنه يخالف « الحق »
وبجافيه !

فلئن جعل سلمان الفارس مفرق الملك من الخليفة ، كيفية التصرف
فى أمور المال ، فقد أعرب بذلك عما فى فطرة الناس من الرعية عموما من
قياس الأحوال السياسية على ما ظهر لهم ومن حياتهم اليومية العملية
متها ، وأوضح ما يكون ذلك فى الأمور المالية والاقتصادية . بحيث تصلح
هذه التصرفات المالية مؤشرا طبيعيا لطبيعة الحكم ومدى نظافته ونزاهته ،
وهل هو لحساب الحاكم واله وذويه وطغمة أوليائه ، أم هو لحساب الناس
كافة . وهل الناس فى هذا النوع من الحكم أو ذاك فى خدمة الحاكم
وطغسته ، أم أن الحاكم فى خدمة الناس كافة .

وهذا ، بعينه هو المقياس الذى قاس به لناس الأمور من قبل ومن بعد ،
حتى ضجوا من « تأكيد » الحاكمين لهم ، وقلهم الوضع الأصلى - وهو

وضع الخلافة التي تسمى الناس « بالحق » وحده . فقال أبو العلاء :

مل المقام : فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعدوا عليها هم وهم أجراؤها

انظر إلى قوله « بغير صلاحها » فإنه مرادف لقول سليمان « في غير
حقه » وانظر إلى قوله « وهم أجراؤها » (أى الأمراء) فهذا هو الوضع
الأصلي - وضع الخلافة الصحيحة بالحق لا بالادعاء الكاذب - الذي قلبه
الأمراء ، واستعملوا فيه المذاهب ، حتى قال أبو العلاء « انها المذاهب
أساس » جلب الدنيا « إلى الرؤساء ! »

فطن عمر سلفيته إلى أن أكره الخطر على الحكم السديد الرشيد ،
الذي يقبل الخبيثة إلى « ملك خائن » إنما يأتي من « الدات الدنيا »
للحاكم أو « النفس الدنيا » الأمانة بالسوء وهو يعرف قوة حيويته ، وكم
صرف من الجهد كي يروى صموحها ، وله في ذلك انتصارات بهرة ، من
أبررها ولا وراء قمعه حياها الشديد للحمر ، منذ أيقن أنها محرمة . فكانها
صغط على زر في آلة محكمة لصنع ، فاستهى أمر الخمر إلى الأبد . . .

ليكون أمره الآن مع نفسه الدنيا في جميع أقاتها التي تمس مصالح
الرعية كسابق أمره مع الخمر !

يقول لطريق في نص يمثل هذا القرار أقرب تمثيل .

« حدثني يعقوب بن ابراهيم ، قال حدثني اسماعيل بن ابراهيم ، عن
يونس ، عن الحسن ، قال : قال عمر :

- إذا كنت في معركة تسعى وتعجز عن الناس ، فوالله ما تلتك في
معركة ، حتى أكون أسوة للناس !

هذا الفصل إذن . ألا يتميز في عيشه عن المعيشة التي تسع كافة
الرعية ، وليعف عن كل مالا ينسى لكافة الرعية ، كي يكون أسوة
للناس !

هذا ، وبهذا وحده يثق الناس بالحاكم ، وبأنه « خادهم »
« أجيرهم » وليس مولاهم وراكب أعناقهم !

أعمر طويل ، طول رجل ونصف من سواء الناس ؟

إن الثياب توزع على الناس بالسوية . أفيبدو عمر إدن في ثوب لا يكاد
يصل إلى ركبته ، حيث الثياب « المحترمة » تصل إلى الأرض أو تكاد ؟
ليكن ؟

أيغامر عمر بهيته عندئذ ؟

كلا ! بل يغامر بالأبهة فحسب !

وهو لا يريد الأبهة التي تعرضه لأن يكون « ملكا خائنا » ! بل يريد
اسم الذي يجعل الناس يثقون بحرفية العدل وحرورية المساواة في
الحقوق !

والله إنى لأرى عمر في « بهدلته » وثوبه الذي قد يرفعه ، ولا يبالي إن
يتراكم عليه التراب والدقيق ، من جراء ما يحمله على ظهره لخدمة الرعية ،
« أوجه » و « أسرى » وألبق من ملوك القيافة والأناقة والرواء في ملابسهم
الفاجر ومظهرهم الباهر !

إنه يعلم أنه الأسوة واقدوة . وهو القائل برواية الطبرى سنده عن
حصين المري ، أن عمر قال :

- اسما مثل العرب مثل جمل ألف اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث
يقوده ، فأما أنا ورب أنكبة لأحملهم على الطريق !

لأحملهم على الطريق ؟

- وما الطريق ؟

هكذا ، بدأ عمر يسؤل نفسه ، فوجد الطريق هو « الحق » . وهو البطل

الذى ملأ إيمانه نفسه العليا، فروضت له نفسه الدنيا، وإنه اليوم راض
هذه النفس على تبعات القيادة العليا المسئولة، فلا يعرف ما هو حل له إذا
تجاوز ما هو متاح لسائر وعينه .

لا حق له اليوم في نفسه الدنيا ومتاعها، بل الحق فيها للحق وحده
للمبدأ الذى آمن به .

وأول مظاهر ذلك الحق هو المعيشة المادية . ولكنه أدكى من أن يقصر
الأمر على النسك وعدالة التوريع . بل إنه ليعلم أن ذلك الحق متعلق بكل
مناشط الحياة فلم يلق به النسك في أحضان التراخي والانطواء، بل
حفره على أقصى سعى في حذمه الرعية في الصغيرة والكبيرة
يقول الصبرى :

حدثني الحارث بن أساده عن الشفا ابنة عبد الله ، قالت :

- رأيت فتية يقصدون في المشى ، ويتكلمون رويدا ، فقلت « ما
هذا؟ » فقالوا: سالك! فقلت « كان والله عمر إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى
أسرع ، وإذا صرب أوجع ، هو والله السالك حقا »

بل إنه قصد بذلك النسك أن يتم ما يقرب الإلغاء التام لسطوة ذاته
لدينا ، ليصبح الفعل كله لذاته العليا ، التى يسيطر عليها ويحركها إيمانه
بالحق الأعلى ، وعقيدته التى هى عنده قانون الوجود الأكبر .

وبذلك يضحي « أداة » للإيمان والعقيدة ، تنفس بأنفاسه ، وتفعل
بطاقته ، حتى كأنه « تشخيص » له في عالم الإلس .

ولقد بلغ في نسكه وتقشفه مدى قلما بلغه أحد . ولم يكن ذلك لنقص
في حبه ماعم الحب وطيبات العيش . فقد كان ذا جسد باره وقوة حيوية
عارمة ولكن ما عبرنا عنه بأنها « الذات الدنيا » كانت كالفرس القوى
لشموس الذى يصعب أن ينقاد الا لفارس له من الشكيمة ما يفرق في قوته

قوة ذلك الفرس وشموسه . وكانت ذات عمر العلي - التي فيها فطرته
الخلقية وإيمانه - هي هذا الفارس الذي لا يشق له غبار ، ولا يقاد لغيره
الجواد الجبار .

فكان في لبسه الخشن غير المهذب من الثياب ، وفي طعامه الخشن
الذي كان يبذل لعامة المسلمين ما هو أفضل منه ، ذلك العيب على نفسه
الذي يرقب نزواتها بحذر ، ويعلم سوراتها وحماتها فلا يقلت لها رمام
ولا ينام عن خطراتها طرفة عين

فلم يكن التزامه بذلك العيش الخشن مبالغ في التدين ، بل إنه كان
يعرف الحلال ويرد نفسه عنه ، كما يرد السحاب سجيته المشاعب إلى الحبر
القتار ، والحبس الانفرادي في زنزانه .

وبطبيعة الحال بمخاض الفارس الذي يروض الفرس القوي العبيد إلى
لعنف والعظية والجبروت وهكذا كان عمر غاية في العنف والعظية
والجبروت على نفسه .

وهو إذ يأخذ نفسه بالعظية والعنف ، لابد أن يبدو للناس بادي العظية
والعنف في تعامله معهم . لأنه - شأن المثاليين جميعا - يرى أن المبدأ الأعلى
لابد أن تكون له السيادة غير هواة . عليه ، وعلى الناس كافة
وهذا التحرد من افودة يصدم الناس منه . لما في ذلك من غبطة .
وإنه - لو علموا - على نفسه لأفظ وأغلظ وأعنف .

ولأنه صار « أداة » صرفا للحق ، فهو يطلب من الناس ذلك ، وقد
صار المسئول لبشرى الأعلى عنهم ، بعد رحيل صاحبه . وإن لفس لبروه
شديد العنف بهم « في الحق » . ولأنهم قريبو عهد بالسوة ، فلحق عليهم
سلطان لا يدفعونه ، لذا يتقبلون منه هذا العنف ولا ينمردون عليه . وإن
صاروا مباليين إلى بقده وتسقط الأخطاء نه . ولكن عمر أشد تيقظا وبعدا
لنفسه ، فمن أين يحدون عليه مآحدا ، وهو الأسوة لهم في كل شيء ؟

وبالنسبة إليه بفطرته الألعية إلى أن دولة الاسلام « دولة إيمان » ،
ولست ملكا . تبه إلى الفرق بين الخليفة و« الملك » - وهو لا يرى الملك
بدلك لمعى إلا حائثا كذاك الذى كان يأخذ كل سفينة غصصا !

وهو فى يقظته هذا الفرق حاسم ، أدرك تمام الإدراك أن الملك قد يقوم
على القهر والغلبة ، كما كان الحال فى الجاهلية عند العرب ، وفى
امراطوريتى الفرس والروم . أم « دولة الايمان » فلا تقوم الا على
الاحلاص للعقيدة ، بحيث يكون « الحق » هو ماطر السلطة ، ويكون
الحكم كله لله .

وإد الأمر هكذا ، لا محل إذن أن تكون أهواء الحاكم ، من حب أو
بعض ، دت ترقى الحكم وقرارت الحاكم

أجل أنه شر قوى العاطفة بحب ويكره ، ولكن لا الحب يميل به إلى
التحيز ، ولا البعض يميل به إلى التحيف !

أجل هو بحب أهله وأهله قطعة منه ، كما أن أهل الحاكم الخائن
قطعة منه . وحبهم ليس أقل من حب الحاكم الخائن لأهله . ولكن عمر
لا يعد عمر الفرد ، الحر فيه بحب ويكره ، بل هو « حليفة » ، أداة مجردة
لحق ، وليس له من الأمر شىء باعبار شخصه ، فيسمى إداً| ألا يكون
لأهله من الأمر شىء . فهم فى نظر نفسه وفى نظر الناس قطعة منه ، إن
تحيفوا وتعمو بسطاته ، فذلك هو « استغلال لبقود » ادى بالغ فى
التحيز منه شخصيا ، وهو كذلك يبالغ فى حيافة أهله وتحذيرهم منه
وتحريمه عليهم ، وتوعدهم بالنكك الشديد إن حاولوا من ذلك شىئا حديلا
أو يسيرا . . .

يقول الطبرى :

وكان عمر إذا أراد أن يأمر المسلمين بشىء أو ينهاهم عن شىء مما فيه

صلاحهم بدءاً بأهله ، وتقدم إليهم بانوعظ لهم ، والوعيد على خلافهم
أمه . وحدث أبو بكر بن عباس بسنده عن سالم قال :

كان عمر إذا صعد المنبر فمهر الناس عن شيء جمع أهله فقل .

- إني هيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس يظرون إليكم نظر
لطير إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا أضعت عليه
العقوبة .

هذا شأنه مع أهله الذين يحبهم بالطبع ، وكذلك كان حاله مع من
يودهم من عماله وقراده . حبه لهم مقصص عن محاسنهم عما يفعلون ،
وتقديره لما يحققون للأمة ..

فإذا تركنا الحب إلى العص ، رأينا ها هنا المثل الرائع .

كان أبو مريم السلولي قتل إسلامه قد قتل أخاه زيداً ، وكان عمر
شديد اشتعلق بزيد فلما لقي أبو مريم وهو خليفة قال له

- والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم مسفوح

فقال له أبو مريم :

- أمتحنى لذلك حقالي ؟

فما تردد عمر ، بل قال على الفور :

- لا !

فقال أبو مريم :

- لا صير إداً لا بأسى على أحب عمر النساء !

وإنه فوق هذا الشديد السه إلى فتنة السلطان ، وها هو قد وجد نفسه
« وليس فوقه من دون الله أحد » وإن في طمعه لأعتدداً وحمية ، فبدأ به على
ديده في ترويض « داته الدنيا » وقمعها ، يهال عليها كل خبروته

تصغيراً ، كما يردها إلى ما يريد لها من الانسحاق الذي يترك السلطان كنه
لداته العليا . فأبى على نفسه كل مظهر من مظاهر الوجاهة وماعم الرفاهة
التي لا حرج فيها على أهل اليسار من الرعية . ومن ذلك أنه أبى أن يركب
الدواب المظهمة ، حتى ولو كان في موقف المهابة المطلوبة ، كدخوله الشام
ليعقد صلح إيباء ، (القدس) مبالغة منه في دفع الزهو عن نفسه بذلك
الفتح المبين . فإما هو فتح قام به عباد الله بمدد من الله ولوجه الله !

ومر ذات يوم بمكان من أراض مكة يقال لمن صحبه من أولاده وعماله
وأصحابه :

- لقد رأيتني في هذه الشعب أرعى إبل الحطاب ، وكان عبيطاً
يتعسى . ثم أصبحت وليس فوقى أحد . !

وساءت هذه الكلمة أن له فقال له حين حلا به .

- م حمدك على هذا القول يا أمير المؤمنين .

فقال له :

- إن ناك عجنه نفسه وأحب أن يصعها !

هذا رجل « ذاته العليا » ساهرة تتربص لداته الدنيا أهصوات
والخواطر . لتنهال على أم رأسها سراوة التأديب .

وهو هذا التأديب يستطيع أن تأمر داته العليا على حمل المسئولية العليا
في الأمة واتصرف في كل قضايا دولة الإيها بالحق والصدق



ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، فهو اليوم المسئول عن الإيها يتوخاه
بأقصى قدراته . وقد حدد من أمور الناس ما لم يكن وارداً على عهد نزول
الوحي وحكم النبي وسنته . فلا يحبس يد من الاحتهاد ، وتكليف الأمور

على مقتضى الأحوال لا بالهوى . ولا بالمزاج الحاص بل باستلهاام
لشرع وإعمال عقله المستقل .

الم يكن - وهو المثالي ، وكل مثالي فهو متطرف - بارز الرأي مستقلة على
مهد السبي كما أشرنا من قبل ؟ ولكم أصاب المحز برأيه ، ولا غرو ! فإنه
يمثلث عليه عقله ، ولا يرى له إلا البق وضع وأكرمه

وهل يوم أسرى بدر بسر ؟

وهل يوم مات ابن أبي بن سلول سر ؟

وهل يوم الحديدية بسر ؟

إنه الرأي المستقل المتطرف الصادر عن الغيرة على العقيدة والإيمان
وه الحق ، ألا يوضع إلا حيث يحذره من المصلحة القصوى .

ليكون إدن في استقلال رأيه ، وقد اتسعت الدولة ، الدعامة الثالثة
للعقيدة ودولة الإيمان .

لن يتردد في تحريم زواج المتعة الذي كان السى قد أحله ! ولن يتردد
في العنق التلقائي لكل أمة تند لسيدها ، غير متوقف ذلك على إدن
مالكها ! ولن يتردد في منع توزيع الأراضي في البلاد المفتوحة على الحمد ،
وكانت السنة قد جرت على توزيعها . وألمى ما كان قد فرسه السى للمؤلفة
قلوبهم . وأوقف قطع يد السارق في عدم المحاجة .

إنه الحكم بروح الشرع والعقيدة لا بالحروف . إنه الحكم بالعقل
المبدع المستلهم للعقيدة ، وليس حكم الاتباع الحرق .

إنه الحكم لله ، في غير هوادة .

لَمْ يَعْرِفْ مَعَ نَفْسِهِ هَوَادَةَ ، وَلَا مَعَ أَهْلِهِ . وَأَمْسَكَ لِنَفْسِهِ وَلِأَهْلِهِ هَرَاوَهَ
غَلِيظَةً .

فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَدَّ يَحْمِلُ لِلنَّاسِ ، الدَّرَةَ « الْعَصَا » وَيَصْرِهِمْ بِهَا !
فَلَا تَأْخُذْهُ بِأَحَدٍ فِي « لَحَقْ » هَوَادَةَ !

أمير المؤمنين

ها هو عمر وقد أخذ نفسه بالشدة والعنف ، على الصورة التى ذكرناها ، ليكون « الأداة » للحق ودولة الايمان ، يتصدى لما يندب له من المسئولية العليا عن المؤمنين ، أميرا للمؤمنين

وإنه الرجل الذى يتحرج أن يكون فى موضع التبعة العليا إلا إذا آمن أنه كفؤ لها ، بما راض نفسه وسحرها للحق الإلهى كما لبسه وتلبس به واستوعبه ، حتى صار لا يتنفس ولا يتحرك إلا بدافع منه .

وهو فى هذا المقام يمثل ما سميته فى بعض كتبى مبدأ « المسئولية عن » بكامل معانيها ، ومبدأ المسئولية « أمام » بمعنى واحد من معانيها فحسب .

ونوجز القول فى هذين المبدأين ، فنقول إن المسئولية « عن » لا تكون إلا عن المبدأ ، أو عن الايمان العميق عندئذ يكون من يدين بمبدأ ما فى أعماق سريرته شاعرا أن هذا المبدأ هو « معنى » حياته . وأن حياته بدون تحقيق هذا المبدأ فى سلوكه وأفعاله كافة تكون حياة خالية من المعنى ، هى وحياة السائمة والهوام سواء بسواء .

ذلك أن الفارق الحاسم بين الحياة الانسانية وبين الحياة الحيوانية المحض ، أن حياة الإنسان تمثل معنى معيناً فى أفعالها وغاياتها . أما الحيوان فحياته لا تنشأ تحقيق معنى ما ، بل هى مجرد أداة لدافع حيوى من الغرائز والميول والاحتياجات الفطرية المادية

ويدفع المسؤولية عن المبدأ الذى تقمصه المرء من الناس يكون جهده
 جديته من العوامل المصادرة به ، ومن أهمها عوامل الرغبات الحيوانية التى
 لا تعرف مبدأ ، وإنما هى « حاجة حيوية وإشباعها » ، وهذا كل ما فى
 الأمر . فلاند لصاحب المبدأ من العبرة عليه غيرة تفوق غيرة على حياته
 نفسها ، لأنه مستعد - إذا لزم الأمر - أن يصحى بحياته فى سبيل صيانة
 سيده لدى يؤمن به ، والدفع عنه ، وعلاء كلمته . فالمبدأ عنده أعلى
 من الحياة . لأنه هو الذى يجعل لحياته معنى أو قيمة ، ويدويه لا قيمة
 لها . . .

وليس كل الشر على هذا المستوى الاساسى الرفيع ، فما أكثر من
 يعيشون حياة ملامعى ، وإنما هى « استهلاك » حيوى لطاقات الحياة فى
 « شراع حاجات حيوية » ، شأهم فى هذا شأن الحيوانات العجماء وكل
 ما هناك ان هؤلاء الشر حيوانات « ذكية » رقت المواهب الذهنية التى
 تفوق مالدى الحيوان ، ولكنها لا تستخدمها إلا فى ما ياتل اغراض
 الحيوان .

وفى مذهبى المسمى الذى سميت الفلسفة لتعبيرية ، بسطت فى
 كتابين منها هم « الله والاسان والقيمة » وه نحو مفهوم اساسى للانسان
 ان المميز الحقيقى للانسان حقاً عن الحيوان هو فى وجود هذه المسؤولية عن
 المبدأ لدى الانسان . فالمبدأ ، والايان به ، والمسئولية عنه ، هى التى
 تجعل فعلاً لحياته « قيمة » أو « معنى كلى » يتمثل فى أفعاله ، أو على الأقل
 فى اجتهاده لتوجيه أفعاله وسلوكه إلى تحقيق هذه القيمة ، أى هذا « المعنى
 الكل » . قلت أيضاً أن « القيمة » هى المعراج الحقيقى من الانسان إلى
 الله ، وليس الذكاء أو العقل الفطرى فى مجموعه ، بحيث يكون الله قيمة
 القيم التى يتجه إليها العروج القيمى ، أو النشاط القيمى للانسان فى
 شوط بلا انتهاء .

أما الآخرون أما البشر الذين لا يمثل « المبدأ » أو « المعنى الكلى »
 سبب حياتهم فعلا ، بحيث يكون قوتهم الدافعة ، وعنه يشعرون بكامل
 المسؤولية حمايته وتحقيقه ، فهؤلاء لا يعرفون المسؤولية الباطنة « عن » ، لأنها
 لا تكون إلا « عن » مدأ . ولا مدأ لديهم . وكل ما يعرفونه من المسؤولية
 هو المسؤولية « أمام » أى أمام سلطة خارجية ، عرفا كانت أو قانونا فهم
 « يخافون ولا يستحون » . إذا أمروا الرقيب الخارجى فعلوا ما يشتهون .
 وإن لم يأمنوا امتنعوا بل إن مهم من لا يبالون ويحتالون أو يتحدون السلطة
 والمسئولية أمامها .

والناس قبل الدين ، أو بعده ، لا يعرفون عالما المسؤولية « أمام »
 بهم عند العصا كحيوانات والدين يرمى إلى تحويل المؤمنين إلى مسئولية
 « عن » إيمانهم وعقيدتهم . . .

وهم فى الوقت نفسه يشعرون بنوع واحد من المسؤولية « أمام » . هى
 المسؤولية أمام الصمير ، وأمام الديار أم ما حالف ذلك من السلطات
 الخارجية فلا حسب له ، بل قد يجد المؤمن نفسه يتحداه إذا ما أرادته على
 مخالفة مبدئه الذى يدين به ، فهو من ثمة مسئول عنه



ولقد كانت مسئولية « عن » على أتمها عند عمر ومقتضاها كانت
 مسئوليته أمام صميره الدينى وأمام لذياب عن أتمها نص والمسئولية
 « أمام » إلهى هى هاهنا فرع عن « مسئولية عن » .

وعمر قد سهل على ذاته الديار هرة العليظة حتى رصها على الانقياد
 التام بداته لعب ، إلى لهما المسئولية « عن » عقيدته انى تقمصها وإن
 بحث شخصته ومشاعره وعقليته وحجته وقواه كلها فيها فكان ذلك
 مثالى ، لئلا يعرف فى مسئوليته « عن » إلهيه حدا يقف عنده
 ولا عرانة أن يجدى نفسه لكفاءة كلها لإمارة المؤمنين ، احتراءها أبو بكر ،

وباعه عليها المؤمنون . ولو أنه وثق بهذا لما قبل الامانة ، ولذا نجده شديد
لثقة والاعتداد بقدراته فيمن بقى من جيله ، فيقول : - برواية الطبرى -
في خطبة توليته :

- يا أيها الناس ! انى قد وليت عليكم ، ولولا رجاء ان أكون خيركم
لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم استقلالاً بما ينوب من مهم أمركم ،
ما توليت ذلك منكم !

كلام قاطع بامتحانه نفسه ، وشعوره بالمسئولية « عن » الامانة ، فلو
انه وجد فى جيله من هو أقدر عليها منه لما تولاهها ! أما وهو قد استكمل
ترويض نفسه الدنيا واستتم قواه وأنس فيها الكفاءة ، فمستولته عن
عقيدته تدعوه لقول التبعة ، كما يقبلها البطل الذى رأى الأمر وليس فى
الناس من هو أقدر عليه منه !

وفى هذا تبرر طبيعة البطل المقدام ! وثقته بقوته وقدراته .
ثم ماذا أيضاً يا عمر ؟

ثم يقول فى خطبة تالية - برواية الطبرى أيضاً - :

- إن الله عز وجل قد ولانى أمركم ، وقد علمت أنفع ما حضرتكم
لكم ، ولانى أسأل الله أن يعيننى عليه ، وأن يحرسنى عنده ، كما حرسنى
عند غيره ، وأن يلهمنى العدل فى قسمتكم كالذى أمر به

فهو حريص ما على أن يذكر « معرفه بما هو أنفع لهم » ، فاضطلاعه
بالأمر ليس اضطلاع الكفيف ، أو الجاهل الذى يروم أن يتحسس سبيله
أو يسأل عنه الناس . بل هو اضطلاع الدارس العارف الخبير

ثم ماذا يا عمر ؟

يقول عمر على الأثر :

- ولن يغير الذى وليت من خلافتكم من خلقى شيئاً إن شاء الله

إنها العظمة لله عز وجل ! وليس للعباد منها شيء ! فلا يقول أحد منكم
إن عمر تغير منذ ولى .

إنها الساسة في عمر . « فمت وأسا عمر وحلست وأنا عمر » .
فالعظمة لا تتفق ، بل لا ترد على خاطر رجل يؤمن أن لولاية أمانة ، وأن
الأمانة نعمة . وأنها تكليف لا تشریف !

لكم يحهل أكثر يا أمير المؤمنين هذا المعنى ، لأهم ليسوا أهل أمانة
للمدأ يصدرون عن تقديسه والمسئولية « عنه » .

وكيف ستصع يا أمير المؤمنين مع المؤمنين ؟

يقول أمير المؤمنين ، في خطبته تلك - وخطبه كلها ما أقصرها وأقيمها
وأحكمها !

- اعقل الحق من نفسى وأتقدم ! وأبين لكم أمرى !

« أعقل الحق من نفسى وأتقدم . . » .

ينظر إلى قوله « من نفسى » ! انه استلهم الحق من منع الايمان
في النفس ، وتساوله بالعقل اليقظ الادعاء الملتزم في أن واحد الملتزم
بمعنى المسئولية « عز » هذا الايمان فهو يعمل عقله ويجتهد في رأيه
مستلهم عقيدته للحق . ثم متى عقبه تقدم إلى المؤمنين ، وأمرهم بما يراه
موافقا للحق ، مبينا لهم أمره في غير إيهام
وهكذا يكون البطل حاكما . .

بل هكذا يكون البطل الحاكم المثل للحاكمين أى مثل

ولا يكفيه هذا حتى يحتاج ، فجعل من لا يحطى . يقول عمر :

- فأبىارحل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة ، أو عتب عليا في خلق ،
فيؤذنى ، فأنى أنا رحل منكم ! . وانه ليس بينى وبين أحد من الناس

هوذة . . فعليكم تقوى الله في سركم وعلايتكم . . . وأنا مسئول عن
أمانتي وما أنا فيه !

« ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة » . . .

أى أنه لا يعرف في الحق صديقا ولا عدوا ، ولا يعرف في الله لومة
لائم ! فلا عجب أن ينبرى لرعاية رعيته من المؤمنين ، وفي يده الدرة - وانه
كما قال الطبرى أول من حملها لا تفارقه ، وضرب الناس بها . فقد انرى
لداته الدنيا لا بالدرة فحسب ، بل بالهراوة الغليظة ! .

انرى لهم بروح « شيخ القبيلة » أو « أبى العائلة » بالمعنى الرومانى
الذى كانوا يسمونه « باتر فاميلياس » . يرعاهم من كل وجه ، ويحميهم ،
ويرد عنهم ، ويثيبهم ويعافبهم ، فمبه تجسد القانون يعمل به بلا هوادة

وفي هذه الخصلة تتمثل شريعة المساواة أمام القانون ، يعير تحامل على
معص ولا تحيز لحبيب . فلم يعف من سة المساواة هذه كأسنان المشط
أحدا مهما علا مقامه وعظمت أيديه على الأمة والدولة .

وما أقل من هم أياد على الدولة الاسلامية مثل سعد بن أبى وقاص ،
الذى كان عمر نفسه حين يكتب اليه يقول له وهو على رأس جيش المسلمين
في الفتوح :

- يا سعد ياس أم سعد ! لا يعجبك فوهم : خال رسول الله .

خال رسول الله هذا ، والغازى صاحب الفتح المبين ، لم يعفه عمر من
درته ، لأنه شام منه أنه يريد أن يحرق سنة أن الناس سواسية كأسنان
المشط !

يقول الطبرى برواية مرفوعة إلى راشد بن سعد :

« ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أتى بهال ، فجعل

يقسمه بين الناس ، فأردحوا عليه ، وأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس ، حتى حلص إلى عمر ، فعلاه عمر بالدرة ! وقال .

- إنك أقبلت لا تنهاب سلطان الله في الأرض . فأجبت أن أعلمك أن سلطان الله من يهانك !

وسلطان الله في الأرض هب هو حارس « المساواة بين الناس » في الحقوق . وفيما سميته نحن « تكافؤ الفرصة » .

ولكنه لا يعمل دونه في أصغر الناس مقاماً بغير موجب ، إلا وحاسب نفسه وراحعها ، وكهر عن هذه الفعلة

يقول الظري في رواية مرفوعة إلى يباس بن سلمة عن أبيه قال

« مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السوق ومعه الدرة ، فحفظني بها حفنة . لم تصب إلا طرف ثوبي . وقال

- أمت عن الطريق ! (أى لا ترحم الطريق)

فلم كان في العام المنقل لقيس فقال

- يا سلعة ! أتريد الحج ؟

فقلت :

- نعم !

فأخذ بيدي فاسطلق إلى منزله فأعطاني (من ماله الخاص) سنهائة درهم وقال :

- استعن به على حجتك ! واعلم أنها بالحفنة التي خففتك !

قلت :

- يا أمير المؤمنين ما ذكرتها .

فقال :

- وأنا ما نسيتها !

ها هـ السُّلطة وقد صار مثلاً ! فهو يحمل الدِّرة كل خارج على
لسوية . أيا كان مقامه ، ولكنه لا يفتن بقدرته على الناس ،
ولا يستخدمها « في غير حقها » ، وإن هـا هـمة بدم عيها ، وحاسب نفسه
وكفر عنها .

والدِّرة عنوان السُّلطة .

واسلونه في السُّلطة هو المثل لكل صاحب سُلطة في الأقدام لا يهاب
الكبير ، وفي رعية حق أصغر صغير . فلا « إساءة عنده لاستخدام
سُلطة » . والذي يردده ليس « مجلس الدِّرة » أو « الفصاء الإداري أو غير
إداري » بل ما هو أدق من ذلك محاسبه له ، لأن مسؤوليته « عن » الحق ،
وليست مسؤوليته أمام قضاء .

وكذلك الحال في أمور المال ، فله من مسؤوليته « عن » الأمانة الكرى
ألف ديوان محاسبة .

واحساسه باحرص الشديد على المساواة بين الناس ، وعلى إشعارهم
هذه المساواة المطلقة ، بدل على حكمته ووعه العميق بموطن الاختلاف
بين الحال في الجاهلية ، وبين ما أحدثه الإسلام من التغيير الجسيم في
احساس الناس بالكرامة أمام الشرع وأمام السُّلطة

ولمحة واحدة لما كانت عليه الجاهلية كافية حداً لبيان هذا الفرق ، حين
كان الظلم من « شيم النُّفوس » فإن تجد ذمعة فلعللة (أى لعجز فيه)
لا يظلم ! فالقوة كانت هي الحق كل الحق ، والحق لا سلطان له

ولا حول له ولا طول - انظر إلى تصوير عمرو بن كلثوم في معلقته المشهورة ، لعنجهية القوة :

فنحن المانحون إذا أطعنا	ونحن الحارمون إذا عصينا
ونحن التاركون إذا سخطنا	ونحن الآخذون إذا رضىنا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا	ويشرب غيرنا كدرا وطينا . . !
لنا الدنيا وما أمسى عليها	ونبطش حين نبطش قادرينا !
بغاة ظالمين وما ظلمنا	ولكننا سنبدأ ظالمينا !

وحسبك من فرق بين هذه العنجهية التي تزهو بالقدرة على الظلم وممارسته ، وعلى البطش والتهاذى فيه ، وبين الكرامة الإنسانية لكل انسان في شرعه الدين ، ان المتدين يشمئز من هذه العنجهية ، ويرأى إلى الله منها ان كان صاحب سلطان . . كقول عمر للناس .

- وإيا أنا رحل مككم والعرة لله وحده !

لذا كان عمر شديد الحساسية لكل ما ينتهك هذه المساواة ، لأنه انتهاك يرد الأمر إلى تفاوت الناس في الجاهلية ، ليطش اقوى بالصعيف ، وهو يقول في عنجهية :

- خذها وأنا ابن الأكرمين !

فلو تسامح عمر في مسألة من هذا القبيل لانهدم في نظر الناس حل ما كسوه بالاسلام من الكرامة وحق . ولهذا لمعى حق سعد بن أبي وقاص حين لكر الناس وزاحمهم ليتقدمهم إليه . وأقرب شيء إلى روح عمر في تصويرى أن يصطف الناس « طابورا » لا يسبق أحدا فيه أحد إلا بأسبقية حضوره ، فالكل متساوون ، وفرصتهم متكافئة .

بل إن ما هو أكثر مما فعل سعد بن أبي وقاص . وهو الفاتح حال رسول الله ، فحين أن يشعل غضبه . وهل يسى الناس ما هو مشهور من

قصة ابن عمرو بن العاص فاتح فلسطين وفاتح مصر مع ابن المصرى حين
سبق فرسهما ؟ لقد سبق فرس ابن المصرى فرس ابن عمرو ، فأحدث
اعرة بالاثم ابن عمرو ، وصرب ابن المصرى أمام البطارية لوقاحة فرسه ،
ونحاسره على سبق فرس ابن حاكم مصر . صربه بسوطه وقال له :

- خذها وأنا ابن الأكرمين !

ودهب المصرى بانه إلى أمير المؤمنين شاكيا ، واستدعى عمر عمرو بن
العاص وولده . وأعطى الدرة ابن المصرى وقال له

- اضرب بها ابن الأكرمين !

وصربه الشاب حتى اشتفى ، فقال له عمر :

- أدرها الآن على صلعة عمرو ، فإنما استطال عليك سلطان أبيه !
ولولا أن الرجل قال :

- حسبي يا أمير المؤمنين ، فقد ضربت من صرني

لكان عمرو ذاق من الدرة ما يكره . على يد أحد رعيته !

وأكثر من هذا ، قصته مع جملة من الأيهم ، ومن جملة بن الأيهم ؟

إنه ملك الفساسة ، وأحد كبار قواد هرقل في حربه مع المسلمين في
بلاد الشام . ومن كان يقصدهم الشعراء العرب في ادهلية فيمدحهم
ويتألون جوائزهم السية . فهو الذي قال فيه حسام بن ثابت ، شاعر النبي
من بعد :

لله در عصابه نادمتهم يوما خلق في الزمان الأول
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الانوف من الطراز الأمل !

وكان مثلاً رائعا في الجمال والترف والأبهة على الطراز البيرونى ، فما
رأى هزيمة هرقل وقولته المشهورة :

حتى أقبل كثيرون من أهل الشام على الاسلام ، فقرر أن يسلم مع دويه جميعا . عسى أن تنفى له عزة ملكه على إقليمه . وأرسل أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين هذه البشارة . فسر لها كثير . ثم سار حيلة في خمسمائة من دويه وجهاء الغساسنة ومرسائهم إلى المدينة في ركب ملكي غاية في الأبهة والفخامة . فخرجت سماء المدينة عن بكرة أبيهن ليرين تلك الربة الاسطورية التي سارت بها الركبان . فإذا رجال كالنور في السلاح الروماني المخروف المذهب اللامع الذي يحطف الأنصار ، في ثياب الحرير والدمقس المتعددة الألوان . وقد عقدوا أذناب الخيول على الطريقة البيزنطية ، وريوا صدورهم بقلائد الذهب والفضة (أى ما سمي في اللغة الدارحة « الرشمة ») وردان مفرق حيلة نتاحه النفيس . ودخل الركب المدينة التي تعيش عيشة بسيطة بدائية على تلك الحالة ، حتى انتهى حيلة إلى عمر فرحب به وأدى محضه منه

وبعد قليل توجه عمر إلى مكة وصحبه حيلة . وفيما هو يطوف بالكعبة وطىء رجل من بني فزارة إزار حيلة ، فأحدث العزة الحاحه ولمك حيلة ، فما كان منه الا ان رفع يده وضربه فأدمى أنفه . ولجأ الفراري إلى عمر ، فاستدعى عمر حيلة ، فلم ينكر . ولماذا ينكر ؟ ما فعل - في حسانه - الا ما هو طبيعي ، ولعل في صه أن عمر سيريد الرجل ثدييا . فلم يرل حيلة جاهلي الطبع .

ولكن هاله أن أمير المؤمنين قال له :

- قد أقررت ! فلما أن ترضى الرجل ولما أن أقيده ملك ! (أى اجعله يقتصص منك مثل ما اعتديت به عليه)

وصاح حيلة مستكرا :

- وكيف ذلك ، وهو سوقة وأنا ملك ؟

قال عمر :

- إن الاسلام جمعك وابه ، فليست تفصله شىء إلا بالتقى والعافية
(أى الخلو من الذنوب) .

قال جبلة :

- لقد ظننت يا أمير المؤمنين أن الاسلام ، وقد انتصر على الروم ،
جعلنى بالدخول فيه أعز مسى فى الحاهلية

قال عمر :

- دع عك هذا ! فانك إن لم ترص الرجل أفدته منك !

فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال :

- أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه .

وأذن عمر لجللة فى الانصراف .

وتحت جمع الليل ارتحل حملة بدويه الخمسمائة إلى الشام ، ومها إلى
القسطنطينية ، لاثذا بالروم .

وقد يرى قصر النظر أن عمر اشتط فى تطبيق المساواة أمام القايون
ولكن هذه المساواة هى الفارق الحاسم بين روح الحاهلية وروح الدين ولم
يمت ألمعية عمر هذا المعنى ، فكيف يتهاون فيه ، وهو الذى « ليس بيه
وبين أحد فى الحق هواة » ؟

هذا يكون عمر البطل ، هو عمر المثل . لأنه مثالى والمثالى لا يقمه
عن طلب « المثل الأعلى » شىء !

ويسلمنا هذا إلى « صورة الحكم عنده » وعد « رعيته » ، لنرى هل
كان فيها اختلاف ؟

صورة الحكم عسده أن يكون الحاكم في خدمة الناس قاصبهم
ودبيهم ، وأن يرعاهم ويسعى هو إليهم فيما يصلح لهم ويكمل معيشتهم ،
ولا يكلفهم أن يسعوا إليه . فالحاكم الأمين هو الذي يقوم بهذا ويقدر عليه
أكثر من سواه . ووقدر عليه سواه أكثر منه لكان أولى منه بهذا الأمر . الذي
هو أمانة وتكليف لا تشريف ولا « مظرة » بلغة العصر الدارجة على
الأسنة .

لذا قال في خطبة ولايته :

- لولا علمي أني أقدر على أمركم من غيري ما وليت أمركم .

فماذا كانت صورة الحكم عند رعيته من المؤمنين ؟

نرجع إلى الطبرى في حادثة يروها ، بنطق بما نريد ، في رواية له
مرفوعة بأساده إلى ريد بن أسلم عن أبيه ، انه قال :

- خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى حرة واقم ، حتى
إذا كنا بصرار ، إذا نار تؤرث ، فقال :

- يا أسلم ! انى أرى هؤلاء ركب قصرهم الليل والبرد ، انطلق بنا .

فخرجنا سهول حتى دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان لها ، وقدر
منصوبة على النار ، وصيائها يتصاوون (أى يتصورون من الجوع) فقال :

- السلام عليكم يا أصحاب الضوء !

- وعليك السلام !

قال عمر :

- أأذنو ؟

قالت :

- اذن بخير أودع !

فدنا فقال :

- ما بالكم !

قالت :

- قصر بنا الليل والبرد .

قال :

- فما بال هؤلاء الصبية يتضاوون !

قالت :

- الجوع !

قال :

- وأى شيء فى هذه القدر !

قالت :

- ماء أسكتهم به حتى يناموا . الله بيننا وبين عمر !

قال :

- رحك الله ! ما أدرى عمر بكم ؟

قالت :

يتولى أمرنا ويغفل عنا !

ها هو رأى الرعية على أيامه فى الحاكم ، وهذا تصوره للحاكم كيف
ينبغي أن يكون : مهمته البحث عن ذوى الحاجة ليسعى إليهم بما يسد
حاجتهم . والا فهو مقصر ، يستعدون عليه الله !

ويستطرد الطبرى فيقول :

فأقبل عمر على فقال :

- انطلق بنا !

فخرجنا نهروا ! (انظر إلى قوله « نهروا ») حتى أتينا دار الدقيق
فأخرج عدلا فيه كبة شحم ، فقال :

- احمله على !

فقلت :

- أنا أحمله عنك !

قال :

- احمله على .

مرتين ، وثلاثا ، وأنا أريد أن أحمله عنه ، فقال متأففا :

- أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ؟ لا أم لك !

ها أنت ترى عمر نفسه يرى واجبات الحاكم ومسئوليات الحكم ، عين
رؤية رعبته لها ، ممثلة في تلك البدوية . ويرى أن الله سيحاسبه لتقصيره
في البحث عن أمثالها .

ويستطرد الطبرى :

فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه نهروا ، حتى انتهينا إليها ،
فألقي ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا فجعل يقول لها :

- ذرى على ، وأنا أحرك لك .

وجعل ينفخ تحت القدر - وكان ذا الحية عظيمة - فجعلت انظر إلى
الدخان من حبل لحيته حتى أنصج وادم القدر ثم أنزلها وقال :

- ابغينى شيئا .

فأنته بصفحة فأفرغها فيها ، ثم جعل يقول :

- أطعميهم ! وأنا أسطح لك (أى أردتها لك بالفتح)

« فلم يزل حتى شبعوا ، ثم حلّى عندها فضل ذلك ، وقام وقمت معه ، فجعلت تقول :

- جراك الله خيرا ! أنت أولى هذا الأمر من أمير المؤمنين ! »

أجل ! هذه صورة ولّى الأمر عند رعيته ، وهى نعيها صورتها عنده . وما كان يقدّر عليها أحد سواه .

وهى صورة لا يستطيع النهوض بها إلا بطل ، وهو فى قيامه بها مصرب المثل ...

نَعَمْ وَلِي الْأَمْرِ عَمْرُ !

ولكن عمر ليس البطل في اقتداره على الأمانة لأنها أمانة فحسب ، بل فيه عنصر آخر اقترن بحرصه على الأمانة وأداء الواجب ، ليس مرده إلى عمر السطل ، بل إلى عمر الرحلى . لأنها سحية ليست من عناصر البطولة ومقوماتها ، بل مرجعها إلى مراجه وطعه بما هو فرد معين متميز عن سائر الناس .

إنه الخدب والبر والرحمة بالرعية ، كأنه أب هم رحيم ، أو أم لهم رءوم . . . ! فليس حتما ان يكون البطل القادر على ما لا يستطيعه غيره رحيبا أيضا وعطوفا ومحبا .

أما عمر ، فعلى شدته في الحق ، وحشوته الطبيعية في مراجه ، فيبدو كشمرة الخوز ، وراء علاقتها الصلد حلاوة وعذوبة !

وداك ما جعلنى أقول في رأس هذا الفصل « نعم ولى الأمر عمر ! » فولى الأمر قد يكون عادلا وشديدا في الحق والعدل ، ولا يكون محبا عطوفا . أما عمر فهو هذا وذاك معا

ونرجع إلى القصة التى رواها الطبرى عن المرأة التى كان أطفالها يتضاوون من الجوع ، فنطالع بقيتها بالسند المرفوع إلى أسلم :

« ثم تنحى عمر ناحية من المرأة وبنيتها ، ثم استقبلها وربض مريض السمع ! فحطت أقول له :

- إن لك شأنًا غير هذا !

وهو لا يكلمنى ، حتى رأيت الصبية بصطرعون ويضحكون ثم ناموا
وهذه وا ، فقام وهو بحمد الله ، ثم أقبل على فقال :

- يا أسلم ! إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألا أنصرف حتى
أرى ما رأيت منهم ! »

لمحة ناطقة بداتها بطوية عمر العطوف الرحيم بالضعفاء والصغار من
السرعية ، يتوجع قلبه لتعاستهم ، ولا يستريح قلبه حتى يراهم من شدة
المرح والامتلاء بدفعات الحياة في أندايم الصغيرة « بصطرعون » . . . فإن
صغار البشر كصغار الجداء والماعز ، إذا مارعت وامتلات ، كان لها في
فرحها بالحياة مرح وصحب وتصارع بالقرون هو بالمزاح أشبه !

أما حموته وخشونته ، فغهى مظهر من مظاهر البدوى الذى يستحى أن
يظهر عواطفه حتى لا تظن به الرخاوة والضعف .

حتى ما اشتهر من خشية الناس له كان مطهرا خادعا ، فهو باعترافه -
لشدة إحساسه بالتعة والمسئولية عن الناس - كان يخشاهم أكثر مما يخشوه !

يقول أبو جعفر - برواية الطبرى

« كان رضى الله عنه شديدا على أهل الريب ، وفى حق الله صليبا
حتى يستخرجه . ولينا سهلا فيما يلزمه حتى يؤديه ، وبالصغير رحيبا
رؤوفا »

ويروى الطبرى ، بسند مرفوع إلى أسلم أنه قال :

« إن نفرا من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا :

- كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أحشانا (أحافنا لشدة هيبتة) حتى
والله ما نستطيع أن نديم إليه أنصارنا

فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر ، فقال عمر :

- أوقالوا ذلك ؟ هو الله لقد كنت لهم حصى تخوفت الله في ذلك . ولقد اشتدّت عليهم حتى خشيت الله في ذلك . وإيم الله لأنا أشد منهم فرقا
« فزعا » منهم منى !

ولا نتصور عمر المهيب الجبار يقول إنه يفزع من الناس عشا
ولا مبالغة ، فمأعرف المبالغة ولا العبث ولا المجاملة الكاذبة . بل إنى
أصدقه فيما قال بحروفه ، لأن الناس هم مسئولته أمام ربه ، وما أشد فزعه
من التفريط في حق أحد منهم ، أو التقصير فيما يحب لهم من الرعاية .

ويمثل هذا الاحساس العميق بالنسبة والمسئولية عن الرعاية ، ويمثل
هذه اليقظة ويمثل هذا الحذب والعطف والرحمة ، يكون عمر نعم ولى الأمر
حقا . لأنه الأب الحازم اليقظ العطوف . رب العائلة هو بكل معنى الكلمة
ومبتناها . . حتى لقد كلف نفسه بكل المهام كبيرها وصغيرها ،
مما لا نتصوره من حاكم تحت إمرته ما كان إمبراطوريتين !

وإنه على هذا كله للقوى الأمين . الذى لا يعرف الكلل .

يروى الطبرى فى ذلك بسد مرفوع إلى أبى بكر العسى ، قال :

« دخلت حظيرة الصدقة مع عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب
وعثمان بن عفان ، فجلس عثمان فى الظل يكتب ، وقام على رأسه على بن
أبى طالب يمل عليه ما يقول عمر ، وعمر فى الشمس قائم فى يوم حار
شديد الحر ، عليه بردان أسودان ، مترا بواحد ، وقد لف على رأسه آخر ،
بعد إبل الصدقة ، ويكتب ألوانها وأسنانها ، فقال على لعثمان :

- هذا بنت شعيب فى كتاب الله « يا أبت استأجره إن خير من
استأجرت القوى الأمين » .

ثم أشار على بيده إلى عمر فقال .

- هذا القوى الأمين !

أما كان في وسع عمر أن يوكل بهذا العمل أحدا ، أو يئارسه بنفسه وفي
عبر هذا الموقف المجهد بالذات ؟

كلا ! يمنع من هذا أن « قلبه يأكله » غيرة على الأمانة التي في عنقه
للناس الذين يفرع من التقصير في حقهم ، حتى كان يطل بيده جمال
الصدقة الجري بالقطران !

وهو إلى هذا لا يفلق بابه دون أدنى الرعية ، وإذا صل جلس يستقل
مطام الناس وحاجاتهم ويقصى بين الناس حينما أدركوه . إلى أن تكاثرت
القضايا فعين القضاة . ولكن ماذا يصنع في ليلة ، بعد هذا العناء الشديد
في النهار ، الذي ينهض فيه بنفسه بكل الأعباء ؟ أينام ؟

كلا ! بل يقوم في الليل بوظيفة الخفراء !

يقول الطبري بسنده المرفوع إلى بكر بن عبد الله المزني .

« جاء عمر بن الخطاب في الليل إلى باب عبد الرحمن بن عوف
فضربه . . . وقال له عبد الرحمن :

- ما جاء بك في هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟

قال عمر :

- رفقة نزلت في ناحية السوق حشيت عليهم سراق المدينة ، فانطلق
فلنحرمهم !

« فانطلقا فأتيا السوق ، فقعدا على شئ من الأرض يتحدثان ! »

أيمكن أن نتصور أما أثر بآبائه ، يأكله قلبه قلقا عليهم وحوفا على
صوالحهم وحياتهم أيقاظا وبياها ، من عمر برعبته ؟

وقد مر بك أنه كان يطوف الأسواق بدرته ، فمن وحده بسد الطريق
سلعة أو شحوصه خفقه بالدرة ، كي ينظم حركة المرور فهو حمير

الذيل ، وشرطى مرور أو أمين شرطة في النهار ! وهو فوق هذا الامام
والقصي وطيب إيل الصدقة وموثق أوصافها !

وليس يكفيه هذا . هيهات بل هو أيضا « جابى » أموال الشعب ،
والساعى الذى يحمل إلى القاصين من المستحقين مستحقاتهم بنفسه
ما استطاع ، لأنه إذ صار أمير المؤمنين ، يعلم انه أجيرهم وخادهم الأول ،
وهم سادته في الحقيقة ، وليس هو سيدهم !

يقول الطبرى سنده المرفوع إلى السائب بن يزيد :

« سمعت عمر بن الخطاب يقول :

- والله الذى لا إله إلا هو (ثلاثا) ما من أحد إلا له في هذا المال حق ،
وما من أحد أحق به من أحد . . . وما أنا فيه إلا كأحدهم . . . والرجل
وبلاؤه في الاسلام ، والرجل وقدمه في الاسلام ، والرجل وعاقبه في
الاسلام »

ولا يكفيه هذا فيردف أن لكل على قدر حاجته .

- والرجل وحاجته في الاسلام

ثم يشفع ذلك بقوله :

- والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجمل صنعاء حظه من هذا المال وهو

مكانه ! »

وهو كلام أشبه شىء بالصمان الاجتماعى الذى تورعه الدولة على « كل
ذئ حاحه » ، بحيث يصله وهو في مكانه . وناهيك شىء كهذا بقوله عمر
في زمانه ومكانه ، ونحن نحسب أننا سبقنا الأولين !

بل استمع إليه بخطب الناس فيقول .

- أيها الناس 'إني لوددت أن أنحو كفافا لا لي ولا عني وإني لأرحو إن عمرت فيكم يسيرا أو كثيرا أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله ، وألا يبقى أحد من المسلمين وإن كان في بيته إلا آتاه حقه ونصيبه من مال الله ، ولا يسعى إليه بنفسه ، ولا يصب (يتعب) إليه يوما ! . . .

نعم ولي الأمر هذا حقا ، لكأنه وكيل « دائرة » فيها ورثة كثيرون جدا . تأبى أمانته وإخلاصه إلا أن يذهب إلى كل وريث بنصيبه ، لأنه وكيله وأجير !

ولقد دون الدواوين ليضبط بالاحصاء والتسجيل أسماء المستحقين فئة فئة وقبيلة قبيلة ، مسويين إلى آرائهم ولكن رحمته أبت إلا أن يشمل البر من مال من ليسوا لآباء . . فجعل للقطاع نصيبا معلوما من بيت المال . وهل يكون عطف وتكون رحمة أوسع من هذا وأشمل !

يأتيه الناس باللقبط ملقى على قارعة الطريق ، فيفرض له ما يفرضه لأي طفل رضيع ، وهو مائة درهم ، ويفرض لمن يعوله ويرعاه رزقا شهريا يسعه ويرضيه حتى يحسن رعاية اللقيط ويتحمل بيت المال نفقات الموضع . حتى إذا كثر قليلا زاد رزقه شأن الأطفال الشرعيين



ولا تتم صورة الرحمة عند عمر ، إلا إذا ألعا إلى ما كان منه في عام القحط ، الذي اشتهر بعام الرمادة

ويروى أن سعد الشيء الكثير من شدته على نفسه وعلى أولاده في تلك السنة ، لئلا يتمير عن الناس مطحوبين بالقحط ، حتى أنه في تلك السنة لم يأكل إلا الخمر الخاف والريث ، حتى هزل بده المدة وبغير لونه .

ويروى الصري ساسده لمرفوعة إلى أبي هريرة .

- يرحم الله ابن حنمة ! (أي عمر) لقد رأيت عام الرمادة وبه

ليحمل على ظهره حرايين وعكة زيت في يده ، وإنه ليعتقب هو واسلم ،
فلما رأى عمر قال :

- من أين يا أبا هريرة ؟

قلت :

- قريبا !

« وأخذت أعقبه ، حتى انتهينا إلى صرار ، فإذا صرم (خيام معرلة)
نحو من عشرين بيتا من محارب ، فقال عمر :

- ما أقدمكم ؟

قالوا :

- الجهد !

« وأخرجوا لنا جلد الميتة مشويا ، كانوا يأكلونه ! ورمة العظام مسحوقة
كانوا يستفوها ! فرأيت عمر طرح رداءه ثم اترز ، فما زال يطبخ لهم حتى
شبعوا . فأرسل أسلم إلى المدينة فجاء بأعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم
الحانة ، ثم كساهم . وكان يختلف إليهم ، وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك
البلاء .

وحرص في عام الرمادة ألا يأكل وحده داخل بيته أبدا ، بل يولم للناس
من بيت المال ، ويجلس ناحية لا يأكل مما يأكلون ، بل أقل عادة
مما يأكلون . ويمر به رجل من أصحابه فيدعوه إلى طعامه الخاص ، فيتورط
الرجل ويأكل معه الخبز الخاف والزيت ، وعامة الناس تأكل اللحم ! فإذا
عاتبه قال له :

- إنما دعوتك إلى طعامي أنا وذاك طعام المسلمين !

وكان يصنع هذا حتى يعرف الناس أنه لا يأكل حلصة حيرا
مما يأكلون ، بل الأمر بالعكس

أكان هذا يرجو ثناء الناس ؟ أهو رثاء الناس ؟

كلا ! بل هو العمل على أن يثقوا بالعدل الحاكم وإثارة ، لأن الثقة بالعدل ، لا تقل قيمة عن العدل في حد ذاته .

إن قاعات المحاكم مرفوعة فيها فوق رؤوس القضاة

- وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل !

مكتوبة كي يثق الناس بالعدل وعناية القضاء مطلوبة لهذا السبب ، لأن الخفاء مظنة اسوء . والثقة بالعدل أساس الحكم ! بل انه ليس العدل محسوب ، بل جمع إليه حب الناس أيضا والرحمة بهم والغيرة الأكلة عليهم !
فنعم ولي الأمر عمر ! وهكذا يكون أبو الأمة ولي الأمر في مقدرته وحكمته وغيرته ويقظته وفطنته وحزمه ونزاهته وبره ورحمته وإلا فلا !

أجل أمر عمر بن الخطاب مع ولاته وعياله عجب أى عجب ! فلو كان يخفق بالذرة الرعية ، فهو يشتد على ولاته أضعاف شدته على الرعية . ويعاملهم المعاملة التى لا يستفيدون معها من الرخصة التى يذلها عمر للمجرمين العاديين من عامة الناس الذين لا منصب لهم ولا نباهة ذكر ! يروى الطبرى عن طارق بن شهاب أنه قال :

- قال عمر فى عياله ! اللهم انى لم أبعثهم ليأخذوا أموال الناس ، ولا ليضربوا أبشارهم ! من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى !

وروى عن سعد بن أبى طلحة أن عمر خطب الناس يوم الجمعة فقال :

- اللهم انى أشهدك على امراء الامصار ، انى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، وأن يقسموا فيهم فيتهم ، ون يعدلوا ، فإن أشكل عليهم شىء رفعوه إلى .

ويقول الطبرى أيضا برواية عن أبى حصين أن عمر إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول :

- انى استعملتكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم . . . وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، وإنى لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ، ولا تجلدوا

العرب فتذلّوهم ، ولا تجمروهم فتفتنّوهم ، ولا تغفلوا عنهم فتحرّموهم » .

ويردّف بعد ذلك بقوله :

« وكان عمر يقتضى من عماله ، وإذا شكى إليه عامل له جمع بيته وبين من شكاه ، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به أخذته به ! »

وعن أبى فراس أن عمر بن الخطاب خطب الناس فقال :

- أيها الناس ! إني والله ما أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستكم فمن فعل به شيء من ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه !

فوثب عمرو بن العاص فقال :

- يا أمير المؤمنين ، رأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية ، وأدب بعض رعيّتك ، إنك لتقصه منه !

قال عمر :

- إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه !

ولقد أوشك عمرو أن يذوق هذا القصاص بعد أن ذاقه ابنه فى ضربة ضربها ذلك الاس لاس أحد المصريين ، كما ذكرنا آنفا

بل إن المغيرة بن شعبه أمير البصرة أوشك أن يرجه عمر فى حد الزنا ، لو لم يشهد عليه الاثلاثة ، ونصاب الشهادة فى حد الزنا أربعة شهود عدول وبذلك أفلت المغيرة ولم يكد .

ونروى هنا القصة كما أوردها الطبرى ، لأنها ناطقة بالدلالة فى صرامة عمر على ولاته ، لأنهم القدوة والأسوة ، كما أنه الاسوة للامة كلها .

« كان الذى حدث بين أبى بكرة والمغيرة بن شعبة أن المغيرة كان يناغيه ، وكان أبو بكرة يافره عند كل ما يكون منه . وكانا بالبصرة ، وكانا متجاورين بينهما طريق ، وكانا فى مشربتين متقابلتين لهما فى دارهما ، فى كل واحدة منهما كوة مقابلة الأخرى ، فاجتمع إلى أبى بكرة نفر يتحدثون فى مشربته ، فهبت ريح ، ففتحت باب الكوة ، فقام أبو بكرة ليصفقه ، فبصر بالمغيرة ، وقد فتحت الريح باب كوة مشربته ، وهويين رجلى امرأة ، فقال للنفر من ضيوفه :

- قوموا فانظروا !

فقاموا فنظروا . ثم قال :

- اشهدوا عليه !

قالوا له .

- من هذه ؟

قال أبو بكرة :

- هى أم جميل ابنة الأقم .

وكانت أم جميل إحدى بنى عامر بن صعصعة - كانت غاشية للمغيرة (أى تتردد عليه) وتغشى الأمراء والأشراف (أى تتردد عليهم) - وكان بعض النساء يفعلن ذلك فى زمانها فقالوا لأبى بكرة :

- إنما رأينا أعجازا (جمع عجز) ولا ندرى ما الوجه !

ثم إنهم صمتوا حين قامت . فلما خرج المغيرة إلى الصلاة فى أوانها حال أبو بكرة بينه وبين الصلاة وقال :

- لا تصل بنا !

وكتبوا إلى عمر بذلك . فبعث عمر إلى أبى موسى فقال :

- ياأبا موسى ، إني مستعملك ! إني أبعثك إلى أرض قد بص بها
الشيطان وفرخ ، فالزم ما تعرف ، ولا تستبدل فيستبدل الله بك !

فقال أبو موسى :

- يا أمير المؤمنين ! أعنيّ بعدة من أصحاب رسول الله من المهاجرين
والأنصار . . .

فاستعان تسعة وعشرين رجلا منهم أنس بن مالك وهشام بن عامر ثم
خرج أبو موسى فيهم حتى أتاه بالمرد ، وبلغ المغيرة أن أبا موسى قد أتاه
به فقال :

- والله ما جاء أبو موسى رائرا ولا تاحرا ولكنه جاء أمير .

فإبهم لفى ذلك إذ جاء أبو موسى حتى دخل عليهم ، فدفع إليه أبو
موسى كتابا من عمر ، وإياه لأوجز كتاب كتب به أحد من الناس : أربع
كلمات عزل فيها وعنب واستحث وأمر .

- أما بعد ، فإنه بلغني أمر عظيم ، فبعثت أبا موسى أميرا فسلم إليه
ما في يدك . والعجل !

وكتب إلى أهل البصرة :

- أما بعد ، فإنني قد بعثت أبا موسى أميرا عليكم ، ليأخذ لصعبيكم
من قريكم ، فليقاتل بكم عدوكم وليدفع عن ذمتكم ، وليمص فيكم
منكم ثم ليقسمه بكم ، وليبقى لكم طرقكم .

« واهدى المغيرة إلى أبي موسى حارية مولدة من مولدات الطائف
تدعى عقيلة » وقال :

- اني قد رخصتها لك !

وكانت حارية فارغة ثم ارتحل المغيرة وأبو بكره وباعه من كلدة ورياد

وشبل بن معبد البجل (شهود التهمة الأربعة) حتى قدموا على عمر ،
فجمع بينهم وبين المعيرة .

مواجهة في مجلس تحقيق وقضاء ، شأن أى منهم بريئة . . .

ويستطرد الطبرى :

فقال المعيرة :

- سل هؤلاء كيف رأوى ؟ أمستقبلهم أو مستدبرهم ؟

وكيف رأوا المرأة أو عرفوها ؟ فإن كانوا مستقبل فكيف لم أستر منهم ؟
أو مستدبرى فبأى شيء استحلوا النظر إلى فى منزلى وأنا على امرأتى ؟
والله ما أتيت إلا امرأتى - وكانت شبه من طنوها هى !

فبدأ عمر بأبى بكر ، فشهد عليه أنه رآه بين رجل « أم جميل » وهو
يدخله ويخرجه كالمرود فى المكحلة !

فسأل عمر :

- كيف رأيتها ؟

قال أبو بكر .

- وأنا مستدبرها !

فقال عمر :

- فكيف استتبت رأسها ؟

قال :

- حين تحاملت (لتقوم)

ثم دعا شبل بن معبد فشهد مثل ذلك . فسأله عمر :

- استدبرتها أو استقبلتها ؟

قال :

- استقبلتهما .

وشهد نافع بمثل شهادة أبي بكر .

وهكذا تمت الشهادة عليه وهو في نفس الفعل مر ثلاثة ، وبقي الرابع الذي به يكمل النصاب ، وبحق عليه حد الرجم . . .

يقول الطبري :

- ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ، قال :

- رأيته حالسا بين رجل امرأة ، ورأيت قدمين مخصومين تحمقان ،
واستين مكشوفتين وسمعت حفزانا (تنفسا) شديدا .

ولم يكتف عمر بهذا ، بل أراد التثبت من بقية أركان الزنا ، ولا حياة
في الدن . ولا في القضاء ، لذا قال له :

- هل رأيت كالمرود في المكحلة ؟

فقال :

- لا

فعاد عمر يسأله :

- فهل تعرف المرأة ؟

(ذلك أنه إن لم يشهد بأنها غريبة عنه قطعاً ، كانت حيلة فلا حياح
عليه)

وقال الرجل :

- لا . ولكن أشبهها . .

ولكن الجرائم لا تثبت بالشبه بل بالتثبت ، ولذا قال له عمر :

- تنح جانباً !

وبذلك أفلت المغيرة من الرجم ، ووجب حد رمى المحصنين
والمحصنات على من اتهموه ...

وأمر عمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ :

- فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون !

فقال له المغيرة :

- اشفنى من هؤلاء الأعد (أى خذ لى بثارى منهم) .

فقال عمر :

- اسكت ! أسكت الله بأمتك ! أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك

بأحجارك !

واضح لذى عنين أن عمر من الخطاب لا يقف دون آخر المدى فى
التشدد مع عماله ، ويواجههم برعيتهم الشاكين منهم ، وهو مستعد
للذهاب إلى حد رجهم متى تثبت عليهم التهمة .

بل إنه كان يخرض الرعية على اللجوء إليه لشكوى عماله ، فيواجههم
بأصحاب الشكوى وهم وإياهم على قدم المساواة ، كى يشعر الرعية أن
الأمر أمرهم ، وأن الأمراء أجراؤهم وخدمهم فى حقيقة الأمر ، كما أن أمير
المؤمنين خادم المؤمنين !

أما من تهمة دون حد الرجم - الذى لاند فيه من درء الحدود بالشبهات
ومنها « عدم كفاية الأدلة » كما فى واقعة المعيرة - فالشبهة وحدها كافية لعزل
الأمير الذائع الصيت ، الذى طوقته الفتوح بأكليل الغار ، أو لمقاسمته
أمواله على أقل التقدير ... فقد كان يتعقبهم بعيون له عليهم فى بيوتهم
هم أشبه « بالمخابرات » .

وهل في الأمراء من هو أنور من سيف الله المسلول ، خالد بن الوليد .
يكفى أن نورد هنا تصوير الطري لعمره بصورة تقبض بالمهانة !

ما زال خالد أميراً على قنسرين حتى عرا عزونه التي أصاب فيها
(غنائم كثيرة) وقسم فيها ما أصاب لنفسه .

وبلغ عمر أن خالداً دخل الحمام فتدلت بعد البقرة شحج عَصْر
معجون بخمر ، فكتب إليه :

- بلغني أنك تدلكت بخمر ، وإن الله قد حرم ظاهر الحمر وباطنه ،
كما حرم ظاهر الإثم وباطنه . وقد حرم من الحمر إلا أن تغسل كما حرم
شربها ، فلا تمسوها أجسادكم فيها بحس . وإن فعلتم فلا تعودوا
فكتب إليه خالد :

- إنا قتلناها (أصابا إليها الماء الكثير) فعادت عسولاً غير حمر
فكتب إليه عمر :

- إني أظن أن المعيرة قد اسلوا بالخفاء ، فلا أماتكم الله عليه !
وبعد فترة وحيرة عرا خالد نخوم الروم وأصاب أموالاً عظيمة ولما فعل
خالد (كما يقول الطري) وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة (أي تلك
الغزوة الصيفية) انتحعه (قصده) رجال من الافاق وكان الأشعث بن
قيس ممن انتحع خالد بفسرين ، فأحاره خالد بعشرة آلاف (درهم)
« وكان عمر لا يخفى عليه شيء في عمله »

(إنها عيون أو محاربه التي اشتهر أمرها) يشهم على عمله
فكتب إليه (عيوه) من العرق محروح من حرج (قصد خالد)
وكتب إليه (عيوه) من الشام محائرة من أحير فيها ، فدعا عمر الريد
وكتب معه إلى أبي عبيدة (وكان رئيساً خالد) أن يعيم خالداً ويعقله

بعيتمته ! وينزع عنه قلنسوته ! حتى يخبرهم من أين أتى بما أجاز به
الأشعث أمن ماله أم إصابة أصابها ؟ فان زعم أنها من إصابة أصابها فقد
أقر بخيانة وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ! »

ألست تراه وضع خالدًا على قرني الإحراج ؟

ويستطرد عمر في كتابه إلى أبي عبيدة :

« واعزله على كل حال ، وصمم إليك عمله ! »

فكتب أبو عبيدة إلى خالد ، فقدم عليه ، ثم جمع الناس وجلس لهم
على المنبر ، فقام البريد فقال :

- يا خالد ، أمن مالك أحرقت بعشرة آلاف أم من إصابة ؟

فلم يجبه خالد حتى أكثر عليه ، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً .
فقام بلال (مؤذن النسي) إليه فقال :

- إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا !

ثم تناول بلال قلنسوته فعلقه بعنقه وقال له :

- ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟

قال خالد :

- لا . بل من مالي !

فأطلقه بلال وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال :

- نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخم ونخدم موالينا !

وأقام خالد متحيراً لا يدري أمعزول أم غير معزول ؟ وجعل أبو عبيدة
لا يحره حتى إذا طال على عمر أن يقدم إليه خالد ، طس الذي كان ،
فكتب إلى خالد بالاقبال (أى يستدعيه) . فأثنى خالد أبا عبيدة ، فقال :

- رحمك الله ! ما أردت إلى ما صنعت ؟ كتبت أمرا كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم !
فقال أبو عبيدة :

- انى والله ما كنت لأرورك ما وجدت لذلك بدأ . وقد علمت أن ذلك يروحك !

فرجع خالد إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ، ثم أقبل على حمص ، فخطبهم وودعهم ، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه ، وقال :

- قد شكوتك إلى المسلمين ! وبالله إنك في أمرى غير مجمل يا عمر !
فقال عمر :

- من أين هذا الشراء يا خالد ؟
(إنه بعينه ما ظننا اننا استحدثناه بأخرة من مبدأ « من أين لك هذا »)
قال خالد :

- من الأنفال والسهمان وما زاد عن الستين ألفا فهو لك !
فقوم عمر عروضه (أملاكه) فزادت عشرين ألفا عن هذا القدر فأدخلها عمر بيت المال . ثم قال .
- يا خالد ! والله إنك على لكريم ! وابتك إلى لحبيب . ولن تعاتبى بعد اليوم على شيء . . . »

ويقول الصري بعد هذا أن عمر كتب إلى الامصار :

- إني لم أعزل خالدًا لسحطة ولا حياة ، ولكن الناس فتنوا به !
فخفت أن يوكلوا إليه ويستلوا به . فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، ولا يكونوا بعرض فتنة !

هذا إذن هو مربط المرس . بحافة الفتة . بالاضافة إلى مخافة
« استغلال النفوذ للاثراء » . . .

أما أولى هاتين المسألتين ، فهي أخطرهما في نظر رجل الدولة المترامة
الارحاء . وأما المسألة لأخرى فهي آفة الحكم والادارة في أى دولة كرت
أو صغرت .

وكأن عمر كان ينظر بعين الغيب إلى أحوال الدولة الاسلامية حين ترك
الولاة فيها على غفلة من الخلفاء - فإذا هم يستقلون بولاياتهم ويورثوها
ذرائعهم . حتى تفككت الدولة واضمحلت وحدتها وشوكتها

ولو كان عمر عارفا بالتاريخ ، لقلنا انه عرف عمرة الامبراطوريات وما
ابتليت به من التمسك من هذا الباب الخطير . .

وهذا يفسر لنا انه لم يعزل خير المشاهير الصناديد الذين فتحوا
الأقطار ، مثل سعد بن أبي وقاص - لشبهة بل إرضاء لفريق من الشاغبين
عليه ، وإنما عذر أمضه به عن الامارة - مع ان سعدا البطل الصنديد غير
متهم عنده في أمانته . . فهو أحد الستة الذين وكل إليهم اختيار أحدهم
ليكون خليفته ، فكيف يكون عنده إلا أميا . . .

ونخالد بن الوليد الذي ذكرنا أمر عزله ، وتعمده تصغيره على ملا كاه
واحد من عرض الناس ، حتى يكسر هيئته الاسطورية عند الجند
وعمر بن العاص كم تعقبه بتهمة استغلال النفوذ ، وكان يضم عزله
لولا أن عاجله الأجل . . .

أما من ليست لهم هذه الأكايل من الغار ، ولا يخشى فتنة الجند بهم ،
ولا افتتانهم بالشهرة والنفوذ فتحدثهم أنفسهم بشق الطاعة ، فلم يعزلهم ،
مثل معاوية بن أبي سفيان الذي كان أميرا على الأردن وإن كانت عينه
عليه ليعرف أيستعل نفوذه أم لا . . .

« وحشية الفتنة » إخراج احتياطي لا بد منه لسلامة أمن الدولة .
البيضة لاستغلال النفوذ لإجراء لا يقل عنه عن العزل أثناء الفتنة . إذ كان
أول من سن قانون « من أين لك هذا » فكان يخصص ثروة الولي عند
توليته (اليس هذا هو نعيمه الإقرار بها في الذمة المالية) ثم يخصص بعد ذلك
ما يريد من ثروته ، فيصممه إلى بيت المال . أي يصدره حسب الخزانة
العامة فإن قال أمير أنه ادخره من راتبه رأف به وقاسمه ماله . فخصصه
إلى بيت المال . . .

وكان رسوبه للمحاسبة لا بدع عند القسمة شيئا إلا أحد نصيبه . حتى
أن خالد بن الوليد أحد إحدى عليه وأعطى الرسول لأخرى . وما قال به
رسول عمر :

- ولكن هذه لا تصلح إلا بملك !

قال خالد :

- أنا أعرف ملك عمر ! لم يعصم من المؤاخدة إن تركتها !

وكان شأنه مع عمرو بن العاص ، على ما يروى المؤرخون شأن
المرتاب ، فسمعة ثراء مصر ومجدها التلذذ ، وأنها درة أقاليم الأرض ،
جعلته يقرر احتفاظه بمعظم خراجها لنفسه ، معالطا ، ومتعللا بحاجة
المرفق إلى الإصلاح وهو يهبط الصفات ، بعد ما أحدثه الاحتلال الروماني
الطويل من المظالم والاهمال والحرب

وكان عمر في كنفه إليه عبيدا ، طاهر التعريض بدمته ، ومن ذلك
قوله :

- لقد أكرمت في مكاتبتك في الدي على أرضك من الخراج . وظننت
أنه سيأتي على غير نزر ، ورحوت أن تفيق فتزفع ذلك إلى . فإذ أنت تأتي
بمعاريض تبعث بها لا توافق الذي بنفسى . ولست قائلا لك دون الذي

كانت تؤذيه مصر من الخراج قبل ذلك . ولست أدري ما الذى نفرك من كتابى وقصك ، فلش كنت مجزئا كافيا صحيحا إن الرأفة لافعة ، وإن كنت مضيعا إن الأمر لعل غير ما تحدث به نفسك ! . . . وعدى يادى الله دواء فيه شفاء عما أسالك عنه ، فلا تجرع أبا عبدالله أن يؤخذ منك الخو وتعطاء ! . . . والحق أبلج ، فدعنى وما عنه تلحج ، فانه قد برح الخفاء والسلام !

ولما رد عليه عمرو متذمرا من هذا التهديد ، زاد عليه شدة وكتب يقول :

- . . . لم أقدمك إلى مصر أجعلها طعمة لك ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفير الخراج وحسن سياستك . فإن أذاك كتابى هذا فاحمل الخراج فانها هوفىء المسلمين !

هو الشك الصريح إذن فى ذمة عمرو المالية !

واستنظره عمرو إلى ان يحصد الناس غلة أرضهم فى موسمها ، فصاق عمر ، وقرر أن يطبق عليه قانون « من أبى لك هذا ؟ » باحصاء ما اقتناه عمرو بعد ولايته ، فكتب إليه باتهامه صراحة :

- إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وأنية وحيوان لم يكن لك حين وليت مصر .

فرد عليه عمرو :

- إن أرضا أرض مردوع ومتجر ، فنحن نصيب فضلا (زيادة) عما نحتاج إليه لنفقتنا . .

فكتب إليه عمر :

- . . . قد سؤت بك ظنا ، ووجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فأخرج إليه ما يطالبك ، وأعفه من الغلظة عليك فإنه برح الخفاء !

وقاسم محمد بن مسلمة عمراً ماله ! وغضب ابن العاص ، أحد
وجهاء قريش الكبار وحامي عمر بن الخطاب يوم كاد يقتل به المشركون ،
وقال متأففا :

- ان رماذ عاملنا فيه ابن حنمة هذه المعاملة لرمان سوء ! لقد كان
العاصي (أبوه) يلبس الخنزير مكهما الديباج !

معرضا بذلك بفقر عمر في الخاهلية وسوء حاله وحال أبيه الخطاب ،
ولولا أنه رجا ابن مسلمة الا ينقل هذه الكلمة إلى عمر ، لكان عجل
بعزله . ونحسب عمر كان عازله على كل حال لو لم تبادره ميته .

وكان هذا حاله مع سائر ولاته ، اتقاء لفساد الحكم وفساد الدم
وما كان يكفى سب العيون عليهم لتسقط أحوالهم الخاصة ، فقد روى
الطبري أنه كان ينوي التجوال في الأقطار التابعة له ليتفقد أحوال الناس
ويسمع شكاياتهم ومطالبهم بنفسه . ففي روايته المرفوعة إلى الحسن ، أن
عمر قال :

- لئن عشت ان شاء الله لأسيرن في الرعية حولا ، فاني أعلم ان
للناس حوائج تقطع دوني (أى يحال بينها وبين الوصول إلى) . أما عما هم
فلا يرفعونها إلى ، وأبهم فلا يصلون إلى ، فأسير إلى الشام فأقيم بها
شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم
بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة
فأقيم بها شهرين ، والله لعلم الحول هذا !

ولكن هذا المشروع الذي لم ينفذ له الأجل كي يتمه من « التفتيش »
على أسلاد والأقطار ، لم يمنعه من البديل الحسن ، وهو انتهاز فرصة موسم
الحج الذي يحضر فيه كثيرون من الناس للحج ، فيقدم الأمراء أيضا ،
ويكون ثمة « مؤتمر » حافل ، يواجه فيه الشاكين بأمرائهم ، ويحقق بنفسه
في شكواهم !

ولكن عزله الولاة والأمراء مخافة لفتنة ، وأخذوا بالأحوط ، جعل
سياسته فيهم نقيض مبدأ القضاء في الحرائم ، فهو لا يأخذ المتهم
بالشبهة ، بل بالبينة القاطعة ، وكل شك يفسر لمصلحة المتهم ويؤدى
لراءته « لعدم كفاية الأدلة » . أما الولاة فهو يأخذهم كما قننا بالشبهة لأن
الأمر لا يتعلق بضرر يلحقهم ، بل يلحق الحكم والدولة بأسرها . وهان
أمر يصلح الناس أن يدلهم أميرا محل أمير .

من هذا فهم انه نظر إلى لامراء نظره إلى نفسه . فهو في نظر نفسه
أداة للحق ودولة الايمان وخدمة الناس كافة . وهم في نظره أدوات لخدمة
الناس من رعييتهم . مجرد أدوات . وأيها ضرر خيف من أداة ، فالأحوط
اطراحها واتخاذ غيرها ! . . .

حكمة أريب .

وأما رأيه في الحاكم الفتاسد الخرب الدمة الذى يستغل منصبه أو
نفوذه ، وما يجب أن يزل به من العقاب ، فيرويه الطبرى بسند مرفوع إلى
موسى بن عتبة ، على النحو التالى :

أتى رهط إلى عمر فقالوا :

- كثر العيال ، واشتدت المثونة ، فزدنا في أعطينا !

فقال عمر :

- فعلتموها ! جمعتم بين الضرائر ، واتخذتم الخدم من مال الله عز
وجل ! أما والله لو ددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة البحر ، تذهب بنا شرقا
وغربا ، فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن
جار قتلوه !

فقال له طلحة :

- وما عليك لو قلت إن تعوج عزلوه ؟

فقال عمر :

.. لا ! القتل أنكل لمن بعده .

والقتل أنكل ، أى أشد ردعا وتخويفا لمن بعده .

وحسبك هذا إعظاما للزاهة ، وكراهة ومقتا للجور وفساد الحكم !

ولكن هل كان غير منطوق على حب أو مودة أو تقدير لهؤلاء الرجال الكبار ، ومنهم « أمين الأمة » أبو عبيدة ، وسعد بن أبي وقاص الذى كان من الستة الذين حصر فيهم عمر الترشيح للخلافة ؟

بل كان يحبهم ويقدرهم ، وينادى ببراءتهم من كل خيانة ، ولكنه فصل بين الحب ومصلحة الدولة . فهم بمنظور العمل ومصلحة الدولة مجرد أدوات - كما أنه هو أداة عليا وحذره من نفسه الدنيا وفتنتها لا يفتر . أما بمنظور شخصه فهم محبوبون أثيرون . . . وهو لا يخلط بين ما يخص شخصه ، وما يخص مصلحة الدولة . .

الم أقل لك إن أمره مع الولاة عجب ؟

ولكن إذا عرف السبب . . :

ونعم ولى الأمر عمر . ونعم انثل للحاكم الحكيم الأمين هو !

نحن سميناه الفاروق !

وإذ أقول « نحن » سميانه الفاروق ، أعني أن المسيحيين هم الذين أطلقوا عليه هذا اللقب ، الذي صار علما عليه في التاريخ . فلفظ الفاروق ليس لفظا عربيا أصيلا ، بل هو - كما يقول البطريق « مار يعقوب أعساطيوس الثالث » بطريق السريان الارثوذكس ، وهو العالم اللغوي المتمكن - لفظ من أصل سرياني آرامي ، فهو يعني في اللهجة السريانية الغربية « المحلّص » ، وأما في اللهجة السريانية الشرقية فاللفظ هو « باروق » . بمعنى المحلّص أيضا . سموه هكذا لأنه هو الذي حلّصهم من ظلم البيزنطيين وحورهم

ويؤيد ابن سعد في طبقاته القول بأن أهل الكتاب هم الذين سموه الفاروق . وليس هناك دليل ثابت على ما يشاع من أن السبي هو الذي أطلق عليه هذه التسمية . وإن كان الواحدى في أسباب بول الآية ٦٠ من سورة النساء ذكر واقعة أسس عليها إطلاق جبريل هذا اللقب عليه . وكان حور البيزنطيين - مع أنهم مسيحيون - على المسيحيين المحالّمين لهم في النحلة شيئاً رهيباً جداً . وحسبك أنهم في مصر شردوا رؤساء القبط الدينيين ، ودخل عمرو مصر ليجد البطريق بنيامين هاربا ، محتفيا عن العيون منذ سبى ! ماهيك ، دد به يلقاه من هم دونه في المكانة ، حتى استشهد كثيرون منهم .

وفي الشام ، حيث بيت المقدس كان الاضطهاد لا يقل عن هذا عنفا . وكانت طائفة السريان أولى هذه الطوائف نصيبا من الظلم البيزنطى

الذى نزل بهم . فلما أقبل العرب فاتحين ، هفت القلوب إلى الخلاص من جور أولئك الرومان الشرقيين ، ونسألموا بعدل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب .

وأبى بطريق القدس (وكانت أيضا تسمى إيلياء) ان يسلم المدينة المقدسة العظمى عند مسيحي العالم أجمع الا للخليفة نفسه .

وأقبل عمر إلى الشام وبيت المقدس في هيئة اسطورية ، اظن المؤرخون في تصوير بساطتها الرائعة ، التى تناقض أهة الروم المعهودة هناك تناقض الليل والنهار !

وما تصور أحد أن موكب هذا الفاتح الذى غرت جيوشه أفق الأرض يكون حملا يركبه عمر ، وعليه غاراتان في إحداهما عمر ، وفي الأخرى دقيق ، وفي المؤخرة حقبة زاد ، وأمامه قرية ماء ! ومن خلفه بضعة جمال أخرى عليها المرالدين صحبوه في سفره هذا .

أما طبلسان الفاتح العظيم فسم يكن أرحوانا مرحرفا بالذهب ، أودرعا مدهية وفسوسة مرصعة . وإسمها هى صلعة أمير المؤمنين نلمع في وهج الشمس . وعليه ثوب به عدة رفع ، وفي قدميه حف وليس له ركاب حتى إذا اعترضت سبيله محاصة ، ترحل عن حملة ، وحلح حفه فأمسكه في يده ، وقاد حملة فعبر به المحاصة حافيا !

واستقبله فواده الكبار : أبو عبيدة ، وريد بن أمى سمعان ، وحالد بن الوليد في كتائب الجند المكدسين ، تهر عدتهم المشاعر ، وعلى رأسهم قدسهم وفد لسوا . فأنخذ يزجرهم . ولما نهه أبو عبيدة - وهو عنده أمين وله عليه دالة - إلى أن مطهره المعرق في اسباطة خنيق أن يلبس أفكار أهل الاقليم ويهولهم ما يضع من أمر نفسه ! عدت دفعه عمر دفعة عمرية في صدره وقال له مسخطا ضائق الصدر :

- أو غيرك يقو لها يا أبا عبيدة ! إنكم كتمتم أذل أهل الدنيا وأحقر الناس ، فأعزكم الاسلام . فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلکم الله !
وعرضوا عليه برثونا فارها يدخل به المدينة المقدسة ، لأن الجمال كما زعموا لا تصلح لهذه الأرض ، فلما ركبته ورآه يتبخر به ، قال :
- هذا مركب الشيطان ومدخل العجب والغرور !
وأسرع ينزل عنه ، ثم ركب جملة وقال لهم :
- خلوا عن جمل !

ويقال دخل بقميصه الكثير الرقع ، الذى تراكت عليه أثرية السفر الطويل ، إلى حيث الأسقف ، فأعطاه القميص وطلب إليه أن يرقعه له ، لأن البلى كان قد أصاب مواضع أخرى فيه ! ففسله الأسقف ورقعه ، وصنع له قميصا مثله ، وقدمها إليه . فسأله عمر :
- وما هذا القميص ؟

فقال الأسقف .

- هو لك هدية !

فلبس عمر قميصه المرقع وهو يقول :

- بل حسبي هذا . فهو أنشف للعرق !

فما ظنك إذن بهذا الدحول الاسطورى الذى لا تبلغ عشر معشار تأثيره مواكب العزاة التى تضج بالسلاح والزينة والآية ؟

هؤلاء الرهبان قوم زهادة ونسك ، وهبوا حياتهم للتقشف واحتقار الدنيا ، اقتداء بزهد المسيح وتقشفه . وهم لا يملكون من الدنيا كثيرا ولا قليلا . فإذا هذا الرجل أشد منهم شبها بزهادة المسيح ونسكه ، وفى يده مفاتيح كنوز الدنيا ومقاليد حكمها ، وهو لا يبالي بذلك !

هم أولى الناس أن يكبروا شأنه ، ويدركوا عظمته الروحية !

كانت قد سبقت دخول المدينة كتابة عقد الصبح مع وفد البطريق في الجابية وإذا به يصلحهم على شروط أسخى بكثير من شروط صلح دمشق وغيرها من أنصار الشام ، إعظاما منه للمدينة المقدسة .

ويورد الطبرى نص هذا الصلح السخى :

صالح عمر أهل إيلياء (بيت المقدس) بالجابية ، وكتب لهم فيها الصلح :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، وكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئتها وسائر ملتها ، انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقض منها ولا من حيزتها ، ولا من صليهم ولا من شيء من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم والسرقة (أى اللصوص) . فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن . وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض قل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم . ومن شاء رجع إلى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان . وكتب وحضر ستة خمس عشرة ،

فكيف لا يبهر الناس بهذا الرهد ، وهذا العفو عند المقدرة ، وهذه السباحة . وأين هذا من صلف الرومان وبطشهم وجورهم ؟ وكيف بعد هذا لا يرون فيه « المحلص » ؟

ويستطرد الطبرى بعد ذلك فيصف فرح أهل إيلياء والبطريق بهذا الصلح السخى ، ثم يقول :

« وبعدها شخص عمر إلى بيت المقدس من الجابية ، فرأى فرسه يتوجى (أى يتألم من وجع أو إصابة فى حافره) فنزل عنه ، فأتوه يردون (بغل) فركبه ، فهزه (متبخترا) فنزل عنه ، فضرب وجه اليردون بردائه ثم قال :

- قبح الله من علمك هذا ! هذا من الخيلاء !

ثم دعا بفرسه بعدما أجه (أراحه) أياما حتى صلب حافره ، فركبه ثم سار حتى انتهى إلى بيت المقدس .

« وعن أبى مريم مولى سلامة قال : شهدت فتح إيلياء مع عمر رحمه الله ، فسار من الجابية فاصلا حتى يقدم إيلياء ، ثم مضى حتى يدخل المسجد (يعنى الكنيسة الكبرى) ، ثم مضى نحو عراب داود ، ونحن معه ، فدخله ثم قرأ سجدة داود ، فسجد وسجدنا معه .

وفى رواية عن رجاء بن حيوة أن كعبا قال لعمر :

- يا أمير المؤمنين ! إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبى منذ خمسمائة عام .

فقال عمر :

- وكيف ؟

فقال كعب :

- ن الروم أعاروا على بنى اسرائيل هاديلوا عليهم ، فدفعوه (بيت
 لقدس) ثم أدبلوا فلم يفرعوا له حتى أعارت عليهم فارس ، فعوا على
 بنى اسرائيل ، ثم ادبلت الروم عليهم إلى ان وليت انت . فبعث الله سيا
 على الكاسة (الكنيسة) فقال - « ابشرى اورى شلم ! الفاروق سقتك
 مما فيك ! » - وعن ربيعة الشامي مثل هذه الروية ، وزاد عليها :
 - اناك « الفاروق » فى جندى المطيع ، يدركون لاهلك تارك من
 الروم . . . »

وبنى ترك من كل هذه الروايات تفصيلاتها التى قد يتأها التفصا
 أو الريادة ، وستبقى منها على كل حال أن « عمر » صار فى نظر أهل ابلقاء
 برهادته وحايته حقوق الصارى المضطهدين نعم « المحلص » ، فأسمره
 « الفاروق » . . . فصار « الفاروق » علما عليه إلى يومنا هذا . . . حتى
 قال الشاعر المعاصر :

مفرق الحز والضلال أتى فادع منه الفاروق أو عمرا . . .
 وقد بلغ من تخرج عمر واحتياطه لحقوق المسيحيين فى كل مكان ، إنه
 عندما خان موعد الصلاة ، وأراد البطريق أو الأسقف له أن يصل فى
 الكنيسة ، أبى ، وخرج إلى سلمها الخارجى ، حتى لا يطلب المسلمون
 من بعده بالكنيسة ، قائلين إنها « مصلى عمر » . .

نعم « الفاروق » هو .

ونعم ولى الأمر هو لأهل دينه وغير دينه على السواء !

نعم البطل هو على الجملة ، ونعم المثل !

وما أبره بأهل الذمة !

ولم تكن هذه سياسته مع مسيحي القدس والشام فحسب ، بل مع أهل الذمة كافة ، في مصر أيضا ، وفي العراق وفي المدينة نفسها . فقد كانت « حرية العقيدة » سائدة في عاصمة الاسلام نفسها على عهده . فعاش فيها أفراد من النصارى ومن اليهود ، معظمهم من أصحاب الحرف أو الاسرى الوافدين من الفتوح . وحسبك أن أبا لؤلؤة الذي قتل عمر يقال انه كان عبدا نصرانيا ، وإن غيره من الأحرار أيضا كانوا فيها من النصارى . وبعضهم من اليهود .

وكان لعمر عبد بصرا نبي نجيب اسمه « أسبق » ، عرض عليه عمر أن يسلم ويتخذه عاملا له على بعض الامصار ، فأبى أن يترك النصرانية ، فما كان منه إلا أن اعتقه لوجه الله الكريم وقال له :

- اذهب حيث شئت !

وفيمن بقى من اليهود بالمدينة كان شيخ أعمى رآه يسأل ، فتألم عمر ، وقال :

- ما أنصفناه ! أكلناه لحما ونرميه عظما !

ثم أمر بتسجيل سائر أمثاله من العجزة الذميين كي يكون لهم من بيت مال المسلمين ما يكفيهم الحاجة ! وما كان اليهود أحب الذميين إليه بطبيعة الحال !

وهذا هو معنى أهم « أهل الذمة » وهو تأدب في هذا تأدب سبيه الذي قرر أن من ادعى دميا كان النبي خصمه يوم القيامة .

فإذا تركنا المدينة ، رأينا قبيلة تغلب العربية ، التي سيكون منها الشاعر الأخطل فيما بعد ناقية على النصرانية لا ترضى عنها بديلا . ويذكر الرواة أن الأخطل كان في بلاط بني أمية يعلق في صدره صليبا صحنيا وأنفتت تغلب أن تدفع الحزبية . فاللفظ لا يتفق وما لعرب من ألفة وحمية وأبوا إلا أن يؤدوا « الصدقة » التي يؤديها المسلمون . . . وشهد اختلاف . وانتهى الأمر إلى أدائهم صدقة المسلم مضاعفة . وليس هين أن يلين عمر لهم هذا اللين ، حفظا لكرامتهم وصونا لأفتهم ويروى عنه أنه قال - نحن سببها حرية ، وسموها أنتم ما شئتم !

ولكن الأمر انتهى إلى أنها الصدقة الواجبة على المسلم مضاعفة

وما كانت الحرية إلا ما سميته اليوم « بدل التحيد » ، أي مقابل قيام المسلمين بالدفاع عن الدميين عسكريا ، لأنه لا يخطر في سلك الجندية بالدولة الإسلامية - والدولة يومئذ دينية لا قومية - أحد من غير المسلمين إنها صريية الدفاع وضرية الأمر . ومقطوع بأن لزمين في ذلك العهد كانوا يدركون أيضا أن الدولة دينية لأن القومية لم تكن قد برر مفهومها بروره في العصور الحديثة ، ولذا كانوا يقبلون تلك الجزية فرحين وأما موقف التغالبة فمرده إلى الأنفة العربية والمجد التالد فيها

وكان الوليد بن عقبة حين عراسى تغلب قد فرص عليهم الاسلام . فشكوه إلى عمر ، فأنصفهم وأذن الوليد بن عقبة ، فالدين لا يجوز أن يفرض على أهل الكتاب بالسيف إلا من شاء الإقامة بحزيرة العرب نفسها فهو غير بين الاسلام أو الارتحال عن قلب الجزيرة إلى أطراف العراق أو الشام . وما كان التغالبة في قلب الجزيرة . ولكنه اشترط عليهم ألا يسموا أحدا من أفرادهم إن أراد اعتناق الاسلام

وكان لهذا « الانصاف » العمرى أثره ، فمنهم من أسلم ومنهم من ظل على نصرانيته . ولكنهم رفضوا مسبة الجزية ، وذهب وفد منهم إلى المدينة لمفاوضة عمر . وتوسط لهم على بن أبى طالب عندما اشتد الحوار ، وقال لهم عمر فى حسم :

- أما نحن فنسمى ذلك جزية ، وسموه أنتم ما شئتم !

فالآن على قلب عمر ، وقال له :

- وماذا تريد منهم وقد ضعف عليهم سعد بن مالك الصدقة ؟

فرضى منهم بالصدقة بدلا من الجزية .

وبيت القصيد من هذه الواقعة أنه كان حريصا على عدم إعانت المتمسكين بنصرانيتهم . وكل ما هناك أنه كان - لأسباب تتعلق بالسياسة العليا كما نقول نحن الآن - قد قرر ألا تقيم قبائل غير مسلمة فى داخل الجزيرة العربية ، زيادة فى الحيلة ، حتى لا يوجد ما يمكن أن يكون « طابورا خامسا » فى قلب الدولة لحساب الروم المتربصين . . .

وقد بدأت سياسته هذه مع أهل نجران فى جنوبى الجزيرة العربية . وكان النبی قد عاهدهم على الجزية ، فكلف عمر عامله « يعلى بن أمية » أن يجلى أهل نجران إلى حيث يختارون من الأرض التى بها قوم على ملتهم خارج جزيرة العرب .

وشدد عمر على يعلى بن أمية ألا يجبرهم على الاسلام ، ولا يغيرهم أو يضغط عليهم ليقتنم عن دينهم . فوافقوا على الارتحال إلى العراق ، وكتب عمر إلى عامله هناك أن يوسع لهم فى الأرض التى يختاروها بما يسعهم ويسر لهم الحياة ، وسط جيران من ملتهم .

وكان مما أوصى به يعلى بن أمية أيضا أن يشتري منهم بمقابل سخى

ما يتركونه من العقار والأموال التي لا تنقل ، وأن يفتلوا معهم صلبانهم وأدوات شعائرهم كما يحبون ويشتهون .

وكذلك فعل أيضا بعشائر اليهود أو جيوشهم الباقية في الجزيرة بعخير أوفدك فأجلاهم إلى الشام مع أشباههم من أهل دينهم هناك ، وأجزل لهم التعويض عن ممتلكاتهم وأرضهم . ولم تكن أسبابه من قبيل التحامل أو التعصب ، بل هو - كما قلنا - إجراء لأمن الدولة ، في عصر كانت الدول فيه دينية لا وطنية ولا مدنية . وللدليل على نفى التعصب عنه أنه كان يساوى في الخصومة أمامه بين اليهودي وعلى بن أبي طالب نفسه عند القضاء بينهما . فمثله لا يظن به التحيف والتعصب

ونأتى بعد هذا إلى سياسته في أرض أهل الكتاب التي فتحها المسلمون . فهم فلاحون يزرعون تلك الأراضي ويعيشون بها ويمتلكوها ويتوارثونها .

وكان الأمر جاريا على عهد النبي - بموجب سورة الأنفال - على تخصيص الخمس من الغنائم للنبي أو الخليفة بعده ، وتقسم أربعة الأخماس على الجند الذين تم على يدهم الفتح - وهو فتح مبين شمل سواد العراق ، فلا عجب أن يتوقع المحاهدون الفاتحون ذلك التقسيم للنبي وورثته سنة ، بل أمرا مساويا نص عليه القرآن في تلك السورة .

ولكن عمر ، برؤيته الاقتصادية والسياسية ، وبعبده عن الطمع العاجل والتعصب ، رفض هذا الرأي ، لأنه رأى في ذلك مضیعة لأهالي تلك البلاد ، وإنشاء في الوقت نفسه لطبقة من كبار الملاك من المسلمين المعاصرين ، ثم لا يجد سواهم من المسلمين في يدهم شيئا ، لأن ملاك هذه الأرض الحدد سيورثونها أباءهم !

وأيد صديقه عبد الرحمن بن عوف رأي الحدد والقواد في التقسيم ، ولكن عمر أصر على رأيه ، محتجا - وبحق - أنه لن تفتح أراض واسعة كهذه

بعد عهده ، فماذا عن المسلمين بعد عهده ؟ وهل تصود الصقاية والتحاسد بينهم ؟

وطلب حدوده التحكيم بين أهل الشورى ، وبسطوا القضية ، ثم قال عمر :

- إني أعوذ بالله أن أركب ظلماً ! ولكنى رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى . وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوهم ، فقسمت ماغنموا من أمواله (مبقولة) بين أهله وأحرحت الخمس فوجهته على وجهه . وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوهم وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون (إلى الأبد) فيثا للمسلمين . المقاتلة والذرية لم يأتى بعدهم . أرايت هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ؟ أرايت هذه المدن العظام لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ولا بد من إدراج العطاء عليهم ! فمن أين يعطى هؤلاء إن قسمت الأرض بينهم ؟

وهكذا فرق عمر بين « النص » الذى يتصل بالعقيدة والعبادة ، و« النص » الذى ينظم مصالح الناس . فرأى أنه إذا تغيرت أوجه المصالح ، كان الأوجب والأولى بالذمة والأمانة وحق الله هو الأخذ بالأصلح .

وكانت نتيجة هذا برا بأهل تلك البلاد ، وقد دخلوا فى ذمة المسلمين ، فبقيت لهم أرضهم ، يؤدون عنها الخراج ، ويؤدون عن أشخاصهم الجزية ، وهم بعد هدا فى أمن من الله وأمان !

لنعم ولى الأمر لأهل الذمة عمر بن الخطاب !

ونعم البطل هو على الجملة ، ونعم المثل !

عمر الرجل !

شيء من الذاتية

سلفت صفحات رزت فيها سمات البطولة في عمر ، وكيف هيأته هذه البطولة - حين صار إليه الحكم - أن يكون مضرب المثل في العدل والراية وإنكار الذات - أعنى الذات الدنيا - من حيث بلغ الغاية من تأكيد الذات - أعنى الذات العليا التى تتجاوز الذاتية - لتتجسد فيها الموضوعية المتجردة عن الأهواء .

ونلم الآن بشيء من سمات عمر التى لا ترجع إلى البطولة ، ولا تصلح مثلاً لمن يبغي المثل ، وإنما هى سمات عمر بياهر فرد معين من أفراد البشر ، عربى الأصل والأرومة ، قرشى النشأة والمنبت ، له طبع حار ومزاج حاد أقرب إلى أن يكون نارياً . . .

وفى هذه السمات لا يبدو متجرداً من ذاته ، بل تفرض عليه بنيته النفسية والمزاجية أنماطاً من السلوك لا توصف بالموضوعية ، وإن لم يتفرد بها عن كثيرين غيره من أبناء حضارته وبيئته .

وأولى هذه السمات شدة شعوره واعتداده بذكورته . وهذه سمة شائعة فى كثير من أمثاله وأبناء جيله وقبيله ، إلا أنها لديه شديدة البروز . . .

وتدعو هذه السمات صاحبها ، بل تحمله حملاً ، على أن يكون غيوراً متقد الغيرة على كل ما فى الخوزة . ولا سيما المرأة . وإن له مع المرأة لشأناً ينبغى أن يذكر . فالدليل قائم على أنه كان فى بيئة الغيورين ملحوظ التميز باتقاد غيرته على النساء . مع حبه للاستكثار من الزوجات . وهو استكثار

معهود في أبناء بيته ، ومفهوم انبثاقه من بيته العارضة وطافته الحوية العارمة .

وبحق نعلم أنه تزوج تسع نساء في فترتي جاهليته وإسلامه . وأنه طلق منهن وله أمهات أولاد من سراريه . ولم يعهد في بيته كتمان هذا الميل الشديد إلى كثرة الزواج . . . والجمع بين الضرائر . وما يروى عنه أنه لما سمع بامراتين مشهورتين بالسجبة والملاحة كانتا قبل أبيه ، قال على البديهة :

- لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما ! (أى لتزوجهما معا !)

وهي كلمة رجل له إلى النساء شوق ملموس وله فيهن رغبة واضحة . . . وتدل أيضا ، مع مجمل سيرته مع سائته ، على أن هذا الشوق الحسى معته فرط الذكورة ، لا افتقاد العاطفة الجمالية . فالعاطفة الجمالية تجعل صاحبها أميل إلى أن يكون أسيرا للحمال ، فيسلمه ذلك إلى العشق والتوله في امرأة بالدات ، تستحوز عليه . أما عمر فبهيات أن يكون عاشقا ! فطبيعته طبيعة الأحد لا طبيعة المأخوذ . وطبيعة المالك لا طبيعة المملوك .

وبحق نعلم أنه تزوج في جاهليته فيمس تزوج امرأة مشهورة بالحمال كان اسمها « العاصية » ، فلما أسلمت غير السى اسمها إلى ما يوافق صفتها ، فسماها « الحميلة » . ويقال إنها كانت شديدة التعلق بعمر ، حتى أنها كانت تودعه إلى الباب إذا خرج ، فتقبله ، وتطل تنتظر أويته . ونعلم أيضا أنه طلق هذه « الحميلة » في خلافة أبي بكر ، وبقي في حضانتها ابن له منها صغير

ونعلم أن امرأة من سائته بلغها أنه سخط على أحد ولاته ، فسألته ماذا صنع حتى استوجب منه هذا السخط ، فم كان من عمر إلا أن قال لها :

- دعى هذه الأمور ولا تسألني عنها -

ولو اكتفى بهذا لما كان في الأمر ما يستلتم النظر . أكثر من غيره رجل يغار على السلطة العليا التي يصططلع بها ، ويأبى أن تتدخل زوجته في أمور الدولة أو السياسة ، أو أن تكون لها وساطة فيها . وهذا أمر حسن غاية الحسن ، يتفق مع سيرة « عمر المثل » . .

ولكنه أردف هذا الهى الحازم بكلمة لا تنبثق من عمر المثل ، بل من عمر الرجل المعين . دى الطمع البارى ، ودى النظرة المعيبة الى جس النساء بعامه . قال لها « بالقم المديان »

- إنما أنت لعة يلعب بها ثم تترك !

وما هي حنرواة رجل شديد الاعتداد بدكوره ، شديد الزراية بجس الاناث . فالمرأة « لعبة » أو « دمية » . . أو أداة متعة حسية بتلهى بها الرجل الجاد ويستصمى فيها الفئص من حيوية ذكوره .

وقد يقال إنها كلمة قيلت تحت وطأة الغضب المتقد . ولكن الغضب لا يستخرج من النفس الا ما هو مستقر كامن في طواياها . قد يسب الغاضب روحته سباً فاحشاً - اذا كان سىء الأدب - وقد يهزأ بشخصها . ولكن لا يحطر له هذا الذى قاله عمر ما لم يكن « وارداً » في سريره ، أنه الاساس الذى يربطه بها .

وعمر هو الذى قال أيضاً . إنما ما كما بعد النساء في الجاهلية شيئاً حتى فرض الاسلام من ما فرضه ، يعنى الحقوق التي كفلها القرآن للمرأة في الأحوال الشخصية والاستقلال بالدمه المالىه . وألا تزوج إلا برضاها ، وما إلى ذلك .

وطبعى أن عمر أول من ينادى لحكم الاسلام وما فرضه للمرأة من الحقوق الشرعية . . ولكن قوله يدل على دهشته لذلك . ففيما عدا ما هو

« محبر » بحكم الشرع عن إيفاء المرأة إياه ، لا يجد لها قيمة فكرية أو معوية ترتفع بها عن مستوى « اللعنة » . التي يدهو بها الرجل . ويملك رصمه كاملا في تعامله معها .

ليس عمر هو الذي أبى أن يجعل به النقي « عبد الله » في حمله حمدة الشورى لا حثبر من يحمله عندما طعمه فيرور الفارسى ، وقال في استنكر واضح :

- كيف أوى أمور المسلمين رجلا لا « يحس » أن يطبق امرأته . !
فالمراة عنده أداة متاع ، وضحيعة هرش ، ولا أكاد أقول « شريكه » فراش ومعبشة . لأنها في مرتبة أحسبها عنده لا ترقى معها إلى البلد الذي يصلح شريكا . .

هذه إذن ليست السمة التي يصلح بها عمر مثلا لسائر الرجال . وبما هي سمة عمر الرجل ، بما هو فرد بالذات من الشر

وكتب السيرة حافلة بما كان من عمر من الإلحاح على السبي أن يفرص الحجاب على زوجاته . وكيف أخرج أم المؤمنين « سودة بنت زمعة » لما راها تخرج في الليل لمكان قضاء الحاجة ، فصاح وهو في مجلس الرجال :

- عرفتكم يا سودة !

ولكم صاقت روحيات السبي بهذا « التدخل » في أمورهن واسته حفيضة من بينهن ، وطل على إخاخه هد إلى أن نزل فرص الحجاب على أمهات المؤمنين



ولاشك أن من دلائل عبرته لتي لا تصلح مصرب المثل مطاوعة مه لطعمه النارى ، ما كان من أمره حين سمع ذات ليلة شاة تنعى في بيتها - وهو يسعى ويتفقد الرعية :

هل من سبيل إلى حمر فأشرها
أم من سبيل إلى نصر بن حجاج !

فما أن طلع الصبح حتى بعث « أمير المؤمنين » من جاءه بصاحب هذا
الاسم . فإذا شاب من أحمل ما خلق الله ، وله لمة شعر بديعة ، فما كان
منه إلا أن قال :

- قصوا له شعره !

ففعّلوا ، فإذا جيبه الوضاء يزداد وضاءة ، حتى حاكى البدر في
تمامه ، فصاح بهم :

- عمموه !

فعمموه . فزاد بهاء ! فتفدت حيلة عمر ، وصاح في غيظ بالغ :

- لا والله ! لا تقيم في أرض « أنا » ها !

وأعطاه ملغا من مال يدبر به حاله ويتاجر فيه ، وبعث به ليقيم في
البصرة !

وهو حكم لا يمكن أن يوصف بالعدل ، أملتة غيرة عمر المتقدمة وحميته
أن يساكنه من تتغزل في حسنه النساء ، لا غيرة منه طبعاً ، بل أنفة أن
يحدث هذا في بلد « هو » ها . فلئن كان هذا الفتى فتنة ستكون بعيداً عن
سمع « عمر » وبصره . . . !

ويقال إن هذا الفتى كان له ابن عم اسمه أبو ذؤيب . سمع عمر أن
النساء يتحدثن بحمالة ، ففعل به مثل ما فعل بنصر ابن عمه ، وأرسله إلى
البصرة أيضاً . !

فهذا عصب عمر « الرجل » ، لا موضوعية عمر « المثل » !

وتبقى درته وحشوته ، وكان معاصروه يتحدثون عنها الحديث الذي
يقطع بأنها فاقت المألوف في بيئة الخشونة . وقلنا آنفا أن هذه الخشونة في
القول ، من قبيل : « لا أم لك ! » إنها هي نتيجة حمية الرجل وشدته على
نفسه قبل شدته على الناس . فهي من سمات عمر الرجل ، ولكنها
تغفر له لأنها سمة نابعة من تكوين عمر الطفل ، الذي صار بعدله وتسويته
بين الناس كافة مضرب المثل .

ولا أحسبني إلا سعيدا لو عشت في ظل حكمه ، شديد الاكبار له
والاعجاب به .

ولكن لا أظنني كنت أتمنى صحبته لاسمع لفظه الخشن ، أو أتعرض
لدرته المشهورة . . .

ولكن من الانصاف أن نسأل أنفسنا :

- أمر الأفضل أن يكون عمر هذه العظمة والموضوعية ، وتلحق بها
هذه السمات الذاتية . أم ألا يكون بهذه ولا تلك !

ولا يختلف اثنان في أن عمر « هكذا » و « على علاته » ذخركبير من
ذخائر التاريخ الشري ، ومثل رفيع جدا لكل من تحدثه نفسه أن يكون
حاكما عادلا نزيها لا يعلق بعدله ونزاهته شائبة . .

وكماه فخرا أن الجانب الداتي من حياته ما كان يمكن أن يكون أضال
من هذا ، بتأثير بيئته وبنيته ، وأن الجانب الموضوعي من حياته صار مضرب
الأمثال ، حتى ليكاد يلحق بالأساطير وأحاديث المحال .

مات عمر . عاش عمر !

وعلى غير توقع طعن عبد فارسى موتور عمر بن الخطاب . وكثرت الأقوال فى أمر مصرعه أهو مكيدة سياسية من خصوم العرب المهزومين الذين زال سلطانهم وملكهم على يديه ، أم هى جريمة فردية . . .

وما اهتز عمر ، بل كان مثلاً « رواقياً » رائعاً للشجاعة فى مواجهة الموت . وشغل نفسه بتدبير أمر الدولة من بعده كى تنتقل السلطة العليا انتقالاً هادئاً إلى خليفته الذى يختاره « أهل الشورى » الذين عينهم . . .

وبكاه كثيرون ولكن نفسى لم تهتز لرثاء قدر ما اهتزت لهذه الآيات :

رعى الله عهداً من إمام وباركت يد الله فى هذا الأديم الممزق
قضيت أمورا ثم غادرت بعدها بوائق فى أكمامها لم تفتق
فمن يسمع ، أو يركب جناحى نعمة ليلحق ما حاولت بالأمس يسبق
أجل مات عمر ، والموت نهاية كل البشر

ولكن لئن مات عمر البطل ، وعمر الرجل ، فليحى عمر المثل ،
ما بقى للعظمة فضل مشهود وذكر محدود ، وهمة يستحق صاحبها الثناء
والخلود . . .

وقد فرغت من تأليف هذا الكتاب فى الخامس من سبتمبر سنة إحدى
وثمانين من القرن العشرين .

نظمى لوقا

من رقيق الأرض
المتمردين على الأغلال

كتب للدكتور نظمي لوقا

تنشرها مكتبة غريب ١ ، ٣ شارع كامل صدقي - الصجالة .

١ - نحو مفهوم إنساني للأساس والوجود والمطلق

٢ - الله : وجوده ووحدانيته بين فلسفتي والدين

٣ - الله والانسان والقيمة .

٤ - على مائدة المسيح .

٥ - محمد في حياته الخاصة .

٦ - انا والاسلام .

٧ - التقاء المسيحية والاسلام .

٨ - ابويكر حوارى محمد .

٩ - عمرو بن العاص .

١٠ - الزواج وأخلاقيات الجنس .

١١ - الحقيقة عند فلاسفة المسلمين .

١٢ - فرويد يفسر أحلامك .

١٣ - الألوهية ومحكمة العقل .

١٤ - فرويد يحدثك عن الحرام .

قريباً

- ١٥- المحترق بين الشك واليقين .
- ١٦- فرويد يحدثك عن الجنس .
- ١٧- فرويد يحدثك عن الأمراض النفسية في حياتك اليومية .
- ١٨- محاكمة الديمقراطية .
- ١٩- أشعار المتمرّد القديم .

يقام الكونجرس ٨٧ / ٨٣٧٦
الفترة المولدة ٧ - ١٩١ - ١٧٥ - ٨٧٧

رقم الايداع ٨٧ / ٨٢٧٩
التقديم الدولي ٧ - ١٩١ - ١٧٢ - ٩٧٧

المطبعة: مطبعة دار

الطبعة: (١٩٧٩) - الطبعة ٢٢

٧٧٠٢٨٧ مطبعة دار (١٩٧٩) - الطبعة ٢٢

٧٨ | ٢٧٢٨ و احياءا مق

٧٧٢ - ٢٧٢ - ١٢١ - ٧ - احياءا مق

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاطوغل) القاهرة

ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

هذا الكتاب

غير خاف أن تراث الاسلام حافل بما يعنى الانسان ، وليس من الخير للبشرية أن تحجب عنها هذه الكنوز من « الخبرات » و « التجارب » و « القيم » و « السلوكيات » . وما أحرى هذا أن يشغل اهتمام كاتب تعنيه هذه الجوانب ، ويعنيه كل شعاع مضى ينبثق منها لينير للبشر - أياً كانت عقائدهم وقومياتهم - طريقهم في حياتهم المعاصرة التى انبهمت فيها المعايير .

هكذا يجيب لنا المفكر المسيحى الدكتور « نظمى لوقا » - من خلال هذا الكتاب - عن سؤال قد يتبادر إلى أذهان الكثيرين ، وهو : لماذا يكتب مفكر مسيحى عن تراث الاسلام وأقطابه ؟ مؤكداً أن الاسلام - بكل تراثه - مصدر له وزنه للحضارة الانسانية ، وموضوع للدرس والاعتبار ، لا يخص المسلمين دون سواهم . بل إنه - بما هو موضوع للمعرفة العقلية الفاحصة الامين - منهل مبذول لكل ذى عقل وبصيرة ، ولا يشترط في هذا العاقل البصير طالب المعرفة أن يكون مسلماً .. فالاسلام عقيدة إيمانية لها خصوصيتها . أما العقل فلا خصوصية له إلاّ معاييره النزيهة التى لا تعرف المجاملة ولا التحامل .

هذا هو المنهج الذى يسير عليه المؤلف فى تناوله لشخصية « عمر بن الخطاب » البطل والمثل والرجل .. فمن يغلّق عينيه دون النور - كما يقول - يضر عينيه ولا يضر النور .

عبد الحميد أحمد غريب